كامل كيلاني

قصص شكسبير

تاجر البندقية

الطبعة الرابعة عشرة



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

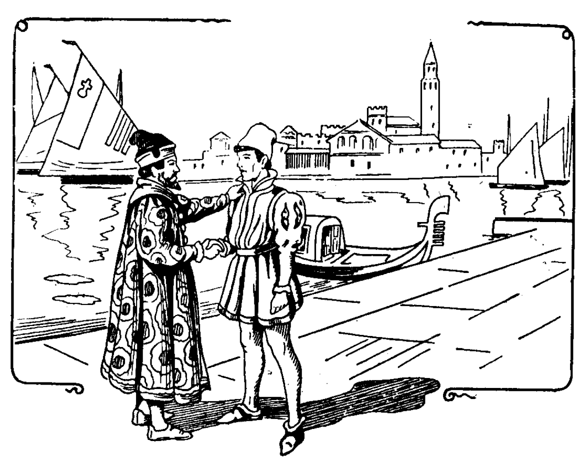
١ – الْبُنْدُقِيَّةُ

الْبُنْدُقِـيَّةُ مَدينَةٌ جَمِيلَةٌ فاتِنَةٌ . هَلْ سَمِعْتَ بِجَمالِ الْبُنْدُقِيَّةِ أيُّها القارئُ الصَّغيرُ ؟ إنْ كُنْتَ لَمْ تَزُرْها فى حَياتِكَ ، أوْ لَمْ تَسْمَعْ بِجَمالِ مَوْقِعِها وَرَوْعَةِ مَناظِرِها ، فما أظُنُّـكَ قَدْ نَسِيتَ ما قرَأْتَهُ عَنْها فى الـكُتُبِ الْجُغْرافِيَّةِ الَّتى تُحَدِّثُكَ بأَنَّ مدينةَ البُنْدقِـيَّةِ من أجْمَلِ مُدُنِ إيطاليا ، كما تُحَدِّثُكَ أنَّها كـانَتْ مركَزَ التِّجارةِ بَيْنَ الشَّرْقِ والغَرْبِ فى العُصُورِ السَّابِقَةِ .

وَلَيْسَ يَعْنِينى أنْ أصِفَ لَكَ جَمالَ هٰذهِ الْمَدينَةِ الآنَ ، بِمِقْدار ما يَعْنِينى أنْ أُحدِّثَكَ بأَنَّ قِصَّتَنا – الَّتى نَروِيها اليَوْمَ – قَدْ حدَثَتْ فِيها ، وكانَ أبْطالُها ومُمَثِّلوها مِنْ سُكَّانِها .

٢ – الصَّديقانِ

فِى أصِيلِ يَوْمٍ مِنَ الأيَّامِ (فِى وقْتِ الْعَصْرِ مِنْهُ) ، وقدْ مَضَى عَلَى ذٰلِكَ الْيَوْمِ سِنُونَ طَوِيلَةٌ – قبلَ أنْ تُولَدَ أيُّها الْفَـتَى الْعزيزُ – كانَ



الصَّديقان الْحَميمان (الْمُخلِصان) « أنْطُنْيُو » و « باسَنْيو » سائِرَيْنِ فى إحْدى طُرُقِ البُنْدُقيَّةِ ، يَتَناقَلان أَشْهى الأَحاديثِ وأَعْذبَ الأَسْمارِ .

وَكانا فى مُقْتَبَلِ شَبابِهما (فِى أَوَّلِهِ) . وقدْ أَخْلَصَ كلٌّ منهُما لصاحِبِهِ إخْلاصَ الأخِ الشَّفِيقِ الْحَدِبِ (الكَثيرِ الشَّفَقَةِ) لأَخيهِ الْمُخْلِصِ الوَفِىِّ .

وكانَتْ ثيابُهما تَدُلُّ مَنْ يَراهُما عَلَى أَنَّهُما مِنْ عِلْيَةِ الْقَوْمِ وسَراةِ النَّاسِ (أَشْرافِهِم وسادَتِهِم) .

وَكانا — فِى الْحقيقَةِ — مِنْ أَطْيَبِ النّاس نَفْسًا ، وَأَصْدَقِهِم إخاءً (صَداقَةً وَمَوَدَّةً) ، حتَّى ضُرِبَ بِهِما الْمَثَلُ فِى الوَفاء .

وَلعلَّك تُحِبُّ أَنْ تَعرفَ — بعْدَ ذٰلِكَ — فى أَىِّ شَأْنٍ كانا يَتَحَدَّثان فى ذٰلِكَ الْحِينِ ؟ فأَنا عارِفٌ بِمَيْلِكَ الشَّدِيدِ إلى مَعْرِفَةِ هٰذِهِ التَّفاصِيلِ .

٣ — مَزايا الصَّدِيقَيْنِ

وَلَسْتُ أَضَنُّ عَلَيْكَ بِهٰذا الْحَدِيثِ . وَلٰكِنْ، أَلا تُحِبُّ أَنْ تَعْرِفَ خَطَرَ هٰذيْنِ الصَّدِيقَيْنِ (عِظَمَ قَدْرِهما) فِى عَصْرِهما ؟

ما بالُك تبْتَسِمُ ؟ أَكُنْتَ تَظُنُّنِى أَجْهَلُ ما يَدُورُ بنفْسِكَ مِنَ الْأَسْئِلةِ . فَلَمَّا رأَيتَنِى أُحَدِّثُكَ بِهِ عَجِبْتَ ؟

كلَّا لَا تَعْجَبْ ! فَقَدْ كنْتُ طِفْلًا مِثْلَك ، وقدْ طافتْ برأْسِى هٰذهِ الأَسْئِلةُ وَأَشْباهُها . فَعلِمْتُ أَنَّك مُولَعٌ (شَدِيدُ الرَّغْبةِ والِاهْتِمامِ) بالِاسْتِفْسارِ عَنْها ، كَما كُنتُ أَنا شَدِيدَ العِنايةِ بأَمْثالِ هٰذه الأَسْئِلةِ .

وإِنِّى قاصٌّ عَلَيْكَ ما يُرْضِيك . وَلَنْ أَدَعَ سُؤَالًا أعرِفُ أَنّهُ يَهْجَسُ فى نَفْسِكَ (يَخطُرُ ببالِكَ) إِلَّا أَجَبْتُك عَنْهُ . وَإِنِّى مُحَدِّثُكَ بأَنَّ « أَنْطُنْيو » كانَ تاجرًا غَنِيًّا بِتلكُ سُفُنًا كثيرةً تَمْخَرُ فى البِحارِ (تَشُقُّ ماءَها وتَجْرِى عَلَيْها) ، مُثقَّلةً بأَنْفَسِ البَضائِعِ . وَكانَ — إلى غِناهُ وَوَفْرةِ

ثَرْوَتِه — كريمَ النَّفْسِ ، سَخِيَّ اليَدِ ، يُعاوِنُ الْمَنْكُوبينَ ، ويُؤَسِّى الْمُحْتاجِين ، ولا يَرُدُّ سائِلًا . وكانَ يُساعِدُ النَّاسَ بِمالِه وجاهِهِ ، وَلا يَدَّخِرُ وُسْعًا فِي إِسْعادِ كلِّ مَن يَلُوذُ بهِ (يَلْجَأُ إليْه) . ومَا أَظُنُّكَ في حاجَةٍ إلى أَنْ تَسْأَلَنِى رَأْىَ النّاسِ فيه ، فَقَدْ أَدْرَكْتَ — مِمَّا سَمِعْتَ — أنَّ النَّاسَ قدْ أَحَبُّوه حُبًّا لا يُوصَفُ ، وَأَجَلُّوهُ إِجْلالًا لا حَدَّ لَهُ . وَلَعَلَّ هٰذا الْحَدِيثَ قَدْ هاجَ (أَثارَ) شَوْقَك إِلَى تعَرُّفِ شَىْءٍ مِنْ مَزايا صَدِيقِهِ « باسَنْيُو » .
وَإِنِّى مُحَدِّثُك بأَنَّ « باسَنْيُو » كان سَيِّدًا نبيلًا نَشأَ من أُسْرَةٍ غَنِيَّةٍ ماجِدَةٍ (لَها مِنَ الْمَجْدِ وَالْعَظَمَةِ نَصِيبٌ) . وقد أَنْفَقَ كلَّ ثرْوَتِه ومالِه فى مُساعدَةِ الْبائِسينَ وَالْمُعْوِزِينَ (الْفُقَراءِ والْمُحْتاجِينَ) ، وَلَمْ يَدَّخِرْ وُسْعًا فى مُعاوَنَةِ كُلِّ مَنْ يَحْتاجُ إِلَى مَعُونَتِهِ .

وَقَدْ أَحَبَّهُ النَّاسُ لِكَرَمِهِ ومُرُوءَتِهِ ، كما أَحَبُّوا صَدِيقَهُ « أَنْطُنْيُو » .

وَكانَ مِنَ الْمَأْلُوفِ أَنْ تَقْوَى أَواصِرُ الصَّداقَةِ (أَسْبابُها وَعَلاقاتُها) بيْنَ هٰذيْنِ السَّيِّدَيْنِ ، لأَنَّ كلَّ إِنْسانٍ يَعْمَلُ عَلَى شاكِلَتِهِ (عَلَى طَرِيقَتِهِ) ، وَيُقْبِلُ عَلَى شَبِيهِهِ . وَلَنْ يَكُونَ الصَّدِيقُ إِلَّا مِثالًا لِمَنْ يُصاحِبُهُ ، خَيِّرًا كانَ أَم شِرِّيرًا .

٤ — حَدِيثُ الصَّدِيقَيْنِ

بَقِيَ عَلَيَّ أَنْ أَقُصَّ عَلَيْكَ حَدِيثَ الصَّدِيقَيْنِ ، فَقَدْ طالَ شَوْقُكَ إِلَى سَماعِهِ .

كانَ « باسَنْيُو » و « أَنْطُنْيُو » — كما قُلْتُ لَكَ — خَيْرَ مِثالٍ لِلصَّدِيقَيْنِ الْمُتَحابَّيْنِ اللَّذَيْنِ لا يَدَّخِرُ أحدُهما أيَّ جُهْدٍ فِي إِسْعادِ الآخَرِ . وَكانَ يَتَحَدَّثُ عَنْهُما النَّاسُ بِأَنَّهُما رُوحٌ في جَسَدَيْنِ ، يُسْعِدُ أَحَدَهُما كلُّ ما يُسْعِدُ صَدِيقَه ، وَيُشْقِيهِ كلُّ ما يُشْقِي صاحِبَهُ .

وَكانا — في تِلْكَ السَّاعَةِ — يَتَحَدَّثانِ عنْ أمانِيِّهما في الْحَياةِ وَرغَباتِهِما ، في أثْناء تَجْوالِهِما (طَوافِهِما) فِي مَدِينَةِ الْبُنْدُقِيَّةِ .

فَقالَ « باسَنْيو » لِصَدِيقِهِ « أَنْطُنْيو » :

« لَقَدْ أَثْقَلْتُ عَلَيْكَ يا صاحِبِي في هٰذِهِ الأَيَّامِ ، بَعْدَ أَنْ نَفِدَتْ (فَنِيَتْ) ثَرْوَتي . وَلا أَزالُ أَجِدُني مُضْطَرًّا إِلَى إِرْهاقِكَ (مُضايَقَتِكَ) »

فَأَجابَهُ « أَنْطُنْيو » باسِمًا :

« إِنَّ الصَّدِيقَ لَنْ يَكُونَ جَدِيرًا بِهٰذا الِاسْمِ (مُسْتَحِقًّا لَهُ)

إلَّا إذا بَذَلَ لِصاحِبِهِ (أعْطاهُ) كلَّ ما يَسْتَطِيعُ أنْ يَبْذُلَهُ منْ جاهٍ وَمالٍ . وَماأجْدَرَكَ أنْ تُولِيَنِي كلَّ ثِقَتِكَ ، وَأنْ تُفْضِيَ إلَيَّ بِدخْلَتِك (تُصَرِّحَ لِي بسرِّك) . وإنِّي مُؤَكِّدٌ لكَ أنَّ كلَّ ما تَطْلُبُهُ مِنِّي، مُحَبَّبٌ إلى نَفْسِيَ إنْجَازُه ، كلَّفنى ذٰلك ما كلَّفَنى مِنْ مالٍ وَعَناءٍ . فَلَسْتُ أدَّخِرُ وُسْعًا فى سَبيلِ إسْعادِك . »

فَقالَ لَهُ « باسَنْيو » ، وقَدِ امْتَلأَ قَلْبُهُ بِشُكْرِ صَديقهِ :

« هٰكَذا عوَّدَنِى إخاؤُكَ يا صَديقِيَ الوفِيَّ . لَقَدْ عَلِمْتَ ما آلتْ إلَيْهِ ثَرْوَتى ، بَعْدَ أنْ عَجَزْتُ عَنْ تَحْقيقِ أَمَلِي فى نَيْلِ ذٰلكَ الْمَنْصِبِ السّامِي الَّذِى لَمْ آلُ جُهْدًا (لَمْ أُقَصِّرْ) فى السَّعْيِ إلَيْه .

وَقَدْ عاقَبَنِيَ الزَّمَنُ — كما تَعْلَمُ — عَلَى خَطَئى . فَإنَّنى لَمْ أتَرَوَّ (لَمْ أَسْتَعْمِلِ الرَّوِيَّةَ والفِكْرَ والتَّأَنِّىَ) فى الْأَمْرِ ، ولَمْ أقِسْ قُدْرَتى إلى غايَتِيَ الَّتِي طَمِعْتُ فى إدْراكِها .

عَلَى أنَّنى أحْمَدُ اللهَ — سُبْحَانَهُ — إذْ وفَّيْتُ كلَّ دَيْنِي ، وإنْ كان ذٰلكَ الْوَفاءُ قَدْ كلَّفَنى فِقْدانَ كلِّ ما أَمْلِكُ مِنْ ثَرْوَةٍ . »

ثمَّ أطْرَق « باسَنْيو » (أمالَ رَأْسَهُ) لَحْظَةً . وكانَ « أنْطُنْيو »

يُصْغِي إِلى حَدِيثِ صاحِبِهِ بِقَلْبِهِ وَسَمْعِهِ . فَعَرَفَ ما يَجُولُ بِنَفْسِهِ مِنَ الْمَعانِي الَّتِي يَمْنَعُهُ الْخَجَلُ مِنَ الْإِفْضاءِ بِها إِلَيْهِ .

فَقالَ له يُشَجِّعُهُ عَلَى الاسْتِرْسالِ فِي حَدِيثِهِ :

« قُلْ فَأَنا أَسْمَعُ ، وأَتْمِمْ حَدِيثَكَ يا « باسَنْيو » ، ولا تَتَرَدَّدْ فِي الْوُثُوقِ بِي والاعْتِمادِ عَلَى إِخائِي . »

فَقالَ « باسَنْيو » : « إِنَّنِي لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُتابِعَ تِلْكَ الرِّحْلَةَ الطَّوِيلَةَ لِعَجْزِي عَنِ الْإِنْفاقِ . ولَقَدْ حانَ مَوْعِدُ زَواجِي ، ولَيْسَ عِنْدِي مِنَ الْمالِ ما أَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى قَضاءِ فُرُوضِ الْعُرْسِ . وسَيَحُولُ إِفْلاسِي (يَقُومُ حاجِزًا) بَيْنِي وبَيْنَ الْمُضِيِّ فِي تَنْفِيذِ تِلْكَ الْخُطَّةِ ، ولَقَدِ اشْتَدَّتْ حاجَتِي إِلى اقْتِراضِ ثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الدَّنانِيرِ لِتَحْقِيقِ هٰذا الْحُلْمِ الْجَمِيلِ . »

فَقالَ لهُ « أَنْطُنْيو » : « لَسْتُ أَدَّخِرُ وُسْعًا فِي تَحْقِيقِ أَمانِيِّكَ ، ولٰكِنَّكَ تَعْلَمُ -- يا صَدِيقِي — أَنَّ ثَرْوَتِي كُلَّها بَعِيدَةٌ عَنِّي الْآنَ ، فَإِنَّ مَراكِبِي لَمْ تَصِلْ إِلَيَّ بَعْدُ . ولَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَجْمَعَ لَكَ هٰذا الْقَدْرَ مِنْ مالِي إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَصِلَ إِلَيَّ سُفُنِي ومَراكِبِي .

عَلى أنَّنى سأعْمَلُ مِنْ أجْلِكَ ما لَمْ أعْمَلْهُ فى حَياتِى قَطُّ !

وَسَتَكُونُ هٰذِهِ أوّلَ مَرَّةٍ ألْجَأُ فِيها إلَى الاسْتِدانة (أخْذِ المالِ مِنْ طَريق الدَّيْنِ)، ولَنْ أعْجزَ عَنِ اقْتِراضِ هٰذا المالِ . فَإنَّ ثِقَةَ النَّاسِ بِى تُيَسِّرُ لى أسْبابَ الْحُصُولِ على ما أُرِيدُ . »

٥ — خِتامُ الْحَدِيثِ

أرَأيْتَ — أيُّها الْفَتَى الْعَزيزُ — إلى أىِّ مَدًى بَلَغَ وَفاءُ «أنْطُنْيو» لِصَديقهِ ؟

لَقَدْ آثَرَهُ (فَضَّلَهُ) على نَفْسِه ، وأحَبَّ لهُ أكْثَرَ ممّا أحَبَّهُ لِنَفْسِه ، ورَضِىَ أنْ يَسْتَدِينَ مِنْ أجْلِهِ ، ولَمْ يَكُنْ لِيَقْبَلَ أنْ يَسْتَدِينَ دِرْهَمًا واحِدًا فى حَياتهِ قَبْلَ هٰذا الْيَوْمِ .

ولٰكِنَّ وَفاءَهُ غَلَبَهُ على أمْرِهِ ، فَلَمْ يُخَيِّبْ رَجاءَ صَديقِهِ وَثِقَتَهُ بِهِ .

وقَدْ شَعَرَ « باسَنْيو » فى أعْماقِ نَفْسِه بِما يَبْذُلُه صَديقُهُ « أنطُنيو » مِنْ مُحاولاتٍ لِتَحْقيقِ أُمْنِيَّتِهِ ، فَتَحَيَّرَ ولَمْ يَدْرِ : كَيْفَ يَشْكُرُ لهُ وفاءَهُ وإخْلاصَهُ ؟

ولٰكِنَّ صَدِيقَهُ « أَنْطُنْيو » هَوَّنَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ ، وسَرَّى (خَفَّفَ) عَنْهُ ، وأَزالَ ما يُساوِرُ نَفْسَهُ (ما يُصِيبُها ويُغالِبُها) مِنَ الْحَيْرَةِ والْقَلَقِ .
فَقالَ « باسَنْيو » :

« شَدَّ ما يُؤْسِفُنِي أَنْ أَعْجِزَ عَنِ الْحُصولِ على هٰذا الْمالِ ، فَإِنَّ النَّاسَ لا يَقْبَلُونَ أَنْ يُقْرِضُونِي (يُسَلِّفُونِي) شَيْئًا بَعْدَ ما عَلِموهُ مِنْ إِفْلاسِي . ولَوْ كانَ فى قُدْرَتِي أَنْ أَقْتَرِضَ (أَسْتَلِفَ) لَمَا وضَعْتُكَ فى هٰذا الْمَأْزِقِ الْحَرِجِ (الضَّيِّقِ) . وَما أَظُنُّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ — وَلا أَسْتَثْنِي « شَيْلُوكَ » — يَرْضَى أَن يُقْرِضَ مُفْلِسًا مِثْلِي ، مَهْما أُضاعِفْ لَهُ الرِّبْحَ . »
فَقالَ لَهُ « أَنْطُنْيو » :

« لا عَلَيْكَ يا صَدِيقِي (لا تَأْسَفْ ولا تُفَكِّرْ) ، فاقْتَرِضْ ما تَشاءُ مِنَ الْمالِ ، وَأَنا مُتَعَهِّدٌ بِرَدِّهِ إِلى مُقْرِضِهِ .
اذْهَبْ إِلى « شَيْلُوكَ » — فى غَيْرِ تَرَدُّدٍ وَلا وَجَلٍ (بِلا خَوْفٍ) — وإِنِّى ذاهِبٌ فى إِثْرِكَ (بَعْدَكَ) . »

فَشَكَرَهُ « باسَنْيو » أَحْسَنَ الشُّكْرِ . وافْتَرَقَ الصَّدِيقانِ عَلَى أَنْ يَلْتَقِيا فى بَيْتِ الشَّيْخِ الْماكِرِ « شَيْلُوكَ » .

١ – « شَيْلوكُ »

عرَفْتَ – أيُّها القارئُ الصَّغيرُ – أنَّ « باسَنْيو » و « أَنْطُنْيو » كانا مِثالَيْنِ من مُثُلِ الوفاءِ والْحُبِّ والإخلاصِ !



وأُحِبُّ أن أَعْرِضَ عليكَ رَجُلًا آخرَ ، هو على العكسِ من صاحِبَيْنا هٰذيْنِ ، فى أَخلاقهِ وصفاتِه . فقد عَرَفَه النّاسُ شَحِيحًا (بخيلًا) قاسِيَ

القلْبِ شِرِّيرًا . أَلا ترَى صُورتَه وهِيَ تُمثِّلُهُ فى ثَوْبهِ الّذِى أَكْسَبَهُ القِدَمُ شَكْلًا بَشِعًا كَرِيهًا ؟ أَلا ترَى ظَهْرَه المُقوَّسَ ، وأَصابِعَه اليابِسَةَ النَّحِيفَةَ الْمُشوَّهَةَ الّتى تُشْبِهُ الْمَخالِبَ (أَظفارَ الْمُفْتَرِسِ مِنَ الْحيَوانِ والطَّيْرِ) ، وابتِسامَتَهُ الْخَبِيثَةَ الّتى تَنِمُّ عَنْ مَكْرٍ ودَهاءٍ ، ونَظْرَتَه الحادَّةَ السَّاخِرَةَ الّتى لا تُفكِّرُ إلّا فِى الْمالِ ، ولا تَحْفِلُ (لَا تَهْتَمُّ) بآلامِ النَّاسِ ومَصائِبِهِمْ ، وما تَجُرُّه عَلَيْهِمْ مِنْ وَيْلاتٍ ومصاعِبَ ؟

فَلا تَعْجَبْ — أَيُّها الصَّبِيُّ الْعزِيزُ — إذا عَلِمْتَ أَنَّ « باسَنْيو » و « أَنْطُنْيو » كانا يَحْتَقِرانِ هٰذا الرَّجُلَ ويَمْقُتانِهِ (يَكْرَهانِه) أَشدَّ الْمَقْتِ . وقدْ كان أَهْلُ « الْبُنْدُقِيَّةِ » يُبْغِضُونَ « شَيْلُوكَ » ويَزْدَرُونَهُ (يَكْرَهُونَهُ وَلا يَحْتَرِمُونَهُ)، ولَايَذْكُرُونَ اسْمَهُ إلَّامَقْرُونًا باللَّعْنَةِ والسُّخْطِ.

وكانَ « شَيْلُوكُ » مُرْبِيًا (يَتَعامَلُ بِالرِّبا) . كانَ يُقرِضُ النَّاسَ الْمالَ وَيَتقاضاهُمْ (يُطالِبُهُمْ) مِنَ الرِّبْح الطَّائِلِ (الكَثِيرِ) ما يُفقِرُهُمْ ويُدْنِيهِم (يُقرِّبُهُم) مِنْ هاوِيَةِ الشَّقاءِ وحُفْرَةِ الإِفْلاسِ .

ولَمْ يَكنِ النَّاسُ لِيَلْجَئُوا إِلَيْهِ ، إلّا إذا اشْتَدَّتْ بِهِمُ الْحاجَةُ القاهِرَةُ إلَى الْمالِ ، واضْطَرَّهُمُ الإِسْرافُ إلَى الِاقْتِراضِ ، وسُدَّتْ فى وُجُوهِهِمُ

الأبوابُ كُلُّها ، فلَمْ يرَوْا بُدًّا مِنَ الْحُصُولِ عَلَى المالِ مِنْ أيِّ طَرِيقٍ .
والْمُضْطَرُّ يرْكَبُ الصَّعْبَ ولَا يُبالِي عاقِبَةَ الأُمُورِ .

٢ — فِي بَيْتِ « شَيْلوكَ »

وَما إِن وَصَلَ « باسَنْيو » إِلى بَيْتِ « شَيْلُوكَ » حَتَّى وَجَدَهُ جالِسًا فى مَكْتَبِهِ ، وقد شَغَلَهُ الْمالُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الدُّنيا ، فَظَلَّ يَعُدُّ دَنانيرَهُ ، ويَحْسِبُ مالَهُ عِنْدَ النَّاسِ مِنْ دُيُونٍ وَأَرْباحٍ .

وَما رَآهُ « شَيْلُوكُ » قادِمًا عَلَيْهِ حَتَّى أَيْقَنَ أَنَّ فَرِيسَةً جَديدةً ساقَها إِلَيْه جَدُّهُ (حَظُّهُ) السَّعيدُ .

وقَدْ عَجِبَ « شَيْلُوكُ » مِن مَقْدَم « باسَنْيو » عليهِ . فَلَمْ يكُنْ يتَعَوَّدُ مِنهُ مِثْلَ هٰذِه الزِّيارةِ الْمُفاجِئَةِ من قَبْلُ .

وما جَلَسَ « باسَنْيو » ، حتَّى قالَ لِصاحِبِنا « شَيْلوكَ » :

« لقَدْ جِئْتُك لِأَقْترِضَ مِنك ثلاثَةَ آلافٍ مِنَ الدَّنانيرِ ، فَماذا أَنْتَ قائلٌ » ؟

فَأَجابَهُ « شَيْلوكُ » وقدْ شاعَتْ (ظَهَرَتْ) عَلَى فَمِهِ ابْتِسامَةٌ ساخِرَةٌ :

« ثَلاثَةُ آلافِ دِينارٍ تُرِيدُ أَنْ تَقْتَرِضَها مِنِّى ؟ وَأَنَّى لَكَ (مِنْ أَيْنَ لَكَ) القُدْرَةُ عَلَى سَدِّ هٰذا الدَّيْنِ الفادِحِ بَعْدَ عامٍ كامِلٍ ؟ »

فقال لهُ « باسَنْيو » :

« لقَدْ وَعَدَنى صَدِيقِى « أَنْطُنْيو » بِأَنْ يَتَعَهَّدَ لكَ بِرَدِّها قَبْلَ أَنْ تَنْقَضِىَ ثلاثَةُ أشْهُرٍ ! »

فَلَمْ يَطْمَئِنَّ « شَيْلُوكُ » إلى قَوْلِ « باسَنْيو » ، وقالَ لهُ فى لَهْجَةِ المُرْتابِ السَّاخِرِ :

« آه ! وَهَلْ يَرُدُّها « أنطنْيو » قَبْلَ ثَلاثَةِ أشْهُرٍ ؟ »

فَأَجابه « باسَنْيو » :

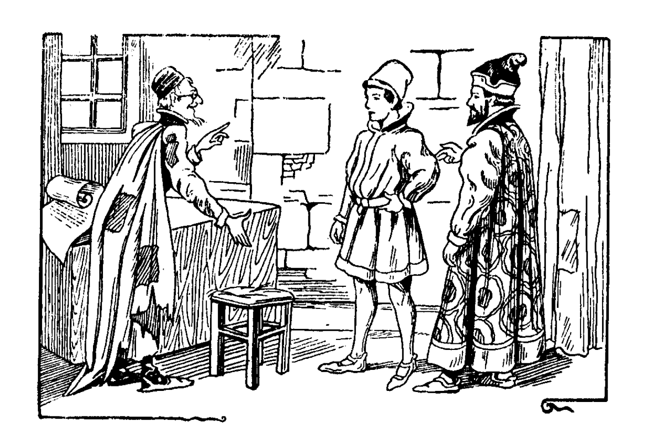
« نَعَمْ ، فقَدْ أَخذ عَلى نفْسِه أَنْ يَدْفَعَ لكَ هٰذا الدَّيْنَ وأَرْباحَهُ فى مَدَى هٰذا الزَّمَنِ . فَهلْ أَنْتَ مُقْرِضِى هٰذا المالَ ؟ »

فَقال لهُ « شَيْلُوكُ » :

« وَأَيْنَ « أَنطُنْيو » ؟ وَمَتَى يَحْضُرُ لِيَتَعَهَّدَ بِرد الدَّيْنِ إِلَىَّ ؟ »

وَما إِنْ أَتَمَّ قوْلَهُ حتى دَخَلَ « أَنطُنْيو » .

وَما رَآهُ « شَيْلُوكُ » فى بَيْتِهِ حَتى دارَتْ بِرَأْسِهِ أَفكارٌ



خَبيثَةٌ ، وَرَأى الْفُرْصَةَ سانِحَةً لِلانْتِقامِ مِن هٰذَيْنِ الصَّديقَيْنِ شِفاءً لِأَحْقادِهِ ، وَقالَ فى نَفْسِهِ :

« لَقَدْ طالَما احْتَقَرَنى هٰذا التّاجِرُ وَأَهانَنى أَمامَ النّاسِ . وَقَدْ آذَنَتْ (جاءَتْ) ساعَةُ الكَيْدِ له والِانْتقامِ مِنْهُ ! »

ثُمَّ الْتَفَتَ « أَنطُنْيو » إلى « شَيْلُوكَ » وقال لهُ :

« أَنْتَ تَعْرِفُ يا « شَيْلُوكُ » أَنَّنى لَمْ أَقْتَرِضْ — فى حَياتى كلها — دِينارًا واحدًا وَلٰكنّنِي اضْطُرِرْتُ الآنَ إلى اقْتِراضِ ثَلاثَةِ

آلافِ دينارٍ لِصَديقِي « باسَنْيو » ، وأَخَذْتُ عَلى نَفْسِي أَن أَرُدَّها لك في مَدَى ثَلاثةِ أَشْهُرٍ ، فماذا أَنْتَ صانِعٌ ؟ »

فقال لَهُ « شَيْلُوكُ » مُتَعَجِّبًا : « وَىْ ! في مَدَى ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ ؟ »

فأجابهُ « أَنطُنْيُو » : « كُنْ عَلَى ثِقَةٍ مِمَّا أَقُولُ . »

فَقالَ « شَيْلُوكُ » : « لَقَدْ سَبَبْتَنِى وازْدَرَيْتَنِى وَأَنا صابِرٌ عَلى إِزْرائِكَ بِي (نِسْبَتِكَ النَّقْصَ إِلَىَّ) وَتَهَكُّمِكَ عَلَىَّ ، لأَنَّنِى تَعَوَّدْتُ الحِلْمَ يا سَيِّدِى « أَنْطُنْيو » . ونَهانِى عَقْلِي عَنْ مُقابَلَةِ الإِساءَةِ بِمِثْلِها . وَلا تَنْسَ أَنَّكَ لَمْ تَتْرُكْ فُرْصَةً لِتَحْقِيرِى إِلَّا انْتَهَزْتَها ! ولَسْتُ أَنْسَى لكَ — ما حَيِيتُ — شَتْمِى وإهانَتِى وتَعْيِيرِى بِالشُّحِّ وَالْبُخْلِ . فَقَدْ كانَ لا يَحْلُو لَكَ أَنْ تُنادِيَنِى بِغَيْرِ أَلْقابِ الزِّرايَةِ والامْتِهانِ : تَدْعُونِى مَرَّةً كَلْبًا ، وَتُنادِينِي — مَرَّةً أُخْرَى — بِاسْمِ الخِنَّوْصِ (وَلَدِ الْخِنْزِيرِ) ، ثُمَّ تَبْصُقُ عَلَىَّ ، إِصْغارًا لِشَأْنِى ، وَتَحْقِيرًا لِأَمْرِى .

هَلْ نَسِيتَ — يا سَيِّدِى « أَنْطُنْيو » — ما وَسَمْتَنِى بِهِ (ما رَمَيْتَنِى به) مِنْ نَقائِصَ وَمُخْزِياتٍ ؟

فَكَيْفَ أَرْغَمَتْكَ الأَيّامُ عَلَى الِالْتِجاءِ إِلَىَّ ؟ وكَيْفَ تَطْلُبُ

مِنِّي هٰذا الْقَدْرَ الكَبِيرَ مِنَ الْمالِ ؟

إِنَّ الكَلْبَ لا يَمْلِكُ ثَلاثَةَ آلافٍ مِنَ الدَّنانِيرِ ، وَلا يُسَلِّفُ عَدُوَّهُ اللَّدُودَ (الشَّدِيدَ الْعداوَةِ) مِثْلَ هٰذا القَدْرِ الطَّائِلِ مِنَ الْمالِ . »

فَقال لهُ « أنطُنْيو » ، فى لَهْجَةِ المُحْنَقِ (الْمُغْتاظِ) السَّاخِرِ : « ما زِلْتُ عِنْدَ رَأْيِي فِيكَ ، وَما زِلْتُ أُصِرُّ عَلى اعْتِقادِي . وَلْتَعْلَمْ يا « شَيْلُوكُ » أَنَّنِي لا أَقْتَرِضُ مِنْكَ الْمالَ كَما يَقْتَرِضُ الصَّدِيقُ مِنْ صَدِيقِهِ ، ولٰكِنَّنِي أَقْتَرِضُهُ كَما يَقْتَرِضُهُ العَدُوُّ اللَّدُودُ مِن عَدُوِّهِ اللَّدُودِ . وَلكَ أَنْ تَشْتَرِطَ ما تَشاءُ عَلى مَدِينِك ، وَأَنْ تَشْتَطَّ (تُجاوِزَ قَدْرَكَ وَتَبْتَعِدَ عنِ الإِنْصافِ) فى حُكْمِكَ ، وتَجُورَ ما شاءَتْ لكَ نَفْسُك ، فَإِذا رَأَيْتَنِي عاجِزًا عَنْ رَدِّ مالِكَ إِلَيْكَ ، أَوْ مُقَصِّرًا فى الْوَفاءِ بِهِ ، فَلا تَأْخُذَنَّكَ فى ذٰلِكَ هَوادَةٌ (رِفْقٌ) وَلا رَحْمَةٌ ، فَإِنَّنِي لا أَقْبَلُ مِنكَ أَنْ تُسْدِيَ إِلَيَّ مَعْرُوفًا (تَصْنَعَ فِيَّ جَمِيلًا) ، وَقَدْ سَلَبَكَ اللهُ الْمُرُوءَةَ . وَيَسَّرَكَ لِلشَّرِّ (جَعَلَهُ سَهْلًا عَلَيْكَ) ، وَهداكَ إِلى الْأَذَى ، وحَرَمَك الْأَرْيَحِيَّةَ (مَيْلَ النَّفْسِ واهْتِزازَها لِلْكَرَمِ) ، وكَتَبَ عَلَيْكَ التَّعاسَةَ وَالشَّقاءَ . »

٣ — حِيلَةُ « شَيْلُوكَ »

ورأَى « شَيْلُوكُ » إصْرارَ خَصْمِهِ « أنطنيو » على إهانَتِهِ وتَنَقُّصِه وثَلْبِهِ (رَمْيِهِ بالنَّقْصِ) . وخَشِيَ أَنْ تُفْلِتَ مِنْهُ هٰذِهِ الفُرْصَةُ الثَّمينَةُ الَّتى أصَرَّ على انْتِهازِها ، لِشِفاءِ حِقْدِه ، وإرْواءِ غَليلِه (سَقْىِ عَطَشِهِ). فَلَجَأَ إلى الدَّهاءِ والْحِيلَةِ ، واصْطَنَعَ المُداراةَ (الْمُلاطَفَةَ) ، وقالَ لِصَديقهِ « أَنْطُنْيو » مُتَوَدِّدًا :

« حَسْبُكَ (يَكْفِيكَ) يا سيِّدِى « أَنْطُنْيُو » ، ولا يُطَوِّحَنَّ بكَ الغَضَبُ إلَى مثْلِ هٰذا الْحَدِّ ! فَلَسْتُ أُضْمِرُ لكَ ضَغِينَةً . وَلَوْ قرَأْتَ صَفْحَةَ قَلْبِى لرأَيْتَ فيها من آياتِ الْولاءِ والإخْلاص ما لَمْ يَخْطُرْ لكَ عَلى بالٍ ! وإنِّى لأَكُونُ أَسْعَدَ النَّاسِ إذا ظَفِرْتُ بِصَداقَتِكَ وحُبِّكَ . وسَتَرَى مِنْ وَلائِى (مُناصَرَتِى) ما يُثْبِتُ لكَ صِدْقَ ما أَقُولُ . »

٤ — شَرِيطَةُ « شَيْلُوكَ »

وَكانَ « أَنْطُنْيُو » يَعْرِفُ خُبْثَ هٰذا الشَّيْخِ الْماكِرِ ، فَلَمْ يَنْخَدِعْ

بِما سَمِعَهُ منْهُ — مِنْ ثَناءٍ وَتَوَدُّدٍ — وَأَيْقَنَ أنَّهُ يُخادِعُهُ وَيُداهِنُهُ (يَحْتالُ عَلَيْهِ وَيُلايِنُهُ) . فَسَأَلَهُ « أَنْطُنْيُو » :

« هَلْ قَبِلْتَ أنْ تُسَلِّفَنا الْمالَ ؟ »

فَقالَ لَهُ « شَيْلُوكُ » وَهُوَ يَتَظاهَرُ بِالْوَلاءِ وَالْحُبِّ :

« إنِّي مُسَلِّفُكَ الْمالَ بِلا رِبْحٍ . أَرَأَيْتَ كيفَ أُحِبُّكَ وَأَحْرِصُ على صداقَتِكَ ، وَأَشْتَرِي مَوَدَّتَكَ بِأَغْلَى ثَمَنٍ ؟ وَلٰكِنَّنِي أُحِبُّ أن أُمازِحَكَ قَليلاً ، وَما أَحْسَبُك تَضَنُّ عَلَيَّ بأنْ أُداعِبَكَ مُداعَبَةً بَرِيئَةً ، تُتيحُ لَنا فُرْصَةً نادِرَةً لِلسُّرُورِ وَالْفَرَحِ . »

فَقالَ لَهُ « أَنْطُنْيُو » : « اشْتَرِطْ ما شِئْتَ . »

فَقالَ « شَيْلُوكُ » : « أَلَسْتَ واثِقاً مِنْ قُدْرَتِكَ عَلَى الْوَفاءِ بِهٰذا الدَّيْنِ ، قَبْلَ انْقِضاءِ ثَلاثَةِ الأَشْهُرِ ؟ »

فَقالَ « أَنْطُنْيو » : « إنِّي لَواثِقٌ مِنْ ذٰلِكَ كلَّ الثِّقَةِ . »

فقال « شَيْلُوكُ » : « لَسْتُ أَشُكُّ فِي قُدْرَتِكَ عَلَى الْوفاءِ بِأَضْعافِ هٰذا الدَّيْنِ . وَقدْ تَأَكَّدَ لِي ذٰلِكَ الْآنَ ، وإنْ لَمْ أَكُنْ فِي حاجةٍ إِلَى تَأْكِيدٍ . فَهَلْ تَرانِي أَشْتَطُّ (أُغالِي) فِي طِلْبَتِي (مَطْلَبِي) ، إذا

اشْتَرَطْتُ عَلَيْكَ أَنْ تُعْطِيَنِى رِطْلًا مِنْ لَحْمِكَ ، متى تأَخَّرْتَ عَنْ سَدِّ ما عَلَيْكَ مِنَ الدَّيْنِ بَعْدَ هٰذا الزَّمَنِ ؟ »

فقال « أنْطُنْيو » وقد تَمَلَّكَتْهُ الدَّهْشَةُ :

« كَيْفَ تَقُولُ أَيُّها الْخَرِفُ (الَّذِى فَسَدَ عَقْلُهُ مِنَ الْكِبَرِ) ؟ أَجادٌّ أَنْتَ فِى هٰذا الِاقْتِراحِ ؟ ما أَحْسَبُكَ إِلَّا هازِلًا ؟ أَكَذٰلِكَ تَشْتَرِطُ عَلَى مَنْ تَتظاهَرُ لَهُ بِالْوَلاءِ والْحُبِّ ؟ »

فَقالَ لَهُ « شَيْلُوكُ » ضاحِكًا : « هٰكَذا أَشْتَرِطُ ، وَما أَحْسَبُك تَشُكُّ لَحْظَةً واحِدَةً فِى أَنَّنِي أُرِيدُ بِذٰلِكَ مُزاحَكَ ومُداعَبَتَكَ ، لِأُشْعِرَكَ بِقُدْرَتِى عليكَ مَتى تأَخَّرْتَ عَنِ الأداء ، ثُمَّ أَتجاوَزَ عَنْ هٰذِهِ الشَّرِيطَةِ — حِينَئِذٍ — تَجاوُزَ الْقادِرِ ، فأُطَوِّقَ جِيدَكَ (رَقَبَتَكَ) بِمِنَّةٍ (بِمِنْحَةٍ) لا تَنْساها طُولَ حياتِكَ ، وأَكْتَسِبَ بِذٰلِكَ صداقَتَكَ وَإِخْلاصَكَ لِى إِلَى الْأَبَدِ ! »

فعَجِبَ « أَنْطُنْيُو » مِنْ كلامِ « شَيْلُوكَ » ، وَأَغْرَقَ فِى الضَّحِكِ مِمّا رَآهُ مِنْ دهائِهِ ، وَسَخِرَ مِنْ حِيلَتِهِ ، وَقالَ : « ما كُنْتُ أَظُنُّكَ يا « شَيْلُوكُ » تَبْلُغُ فى الْمُزاحِ وَالدُّعابَةِ هٰذا الْحَدَّ الْبَعِيدَ ! »

٥ — حِوارُ الصَّديقيْنِ والشَّيخِ

أَمَّا « باسَنْيُو » فقَدِ امْتُقِـعَ وَجْهُهُ حين سَمِـعَ ما قالَهُ « شَيلُوكُ » الْخَبيثُ ، وَتملَّـكَهُ الْغَيْظُ وَالْحَنَقُ عَلَيْهِ ، بَعْدَ أَنْ رَأَى مِنْ خُبْثِه وَكَيْدِهِ ما لَمْ يكُنْ لِيَخْطُرَ لَهُ عَلَى بالٍ .

فالْتَفَتَ إِلَى صَدِيقِهِ « أنْطُنْيو » وَقالَ لَهُ مُغْضَبًا مَحْزُونًا :

« كَلَّا يا صَديقى ! لا تَنْخَدِعْ بِكَيْدِ هٰذا الْخاتِلِ (الْمُخادِعِ) الّذِى حُرِمَ النُّبْلَ والْمُرُوءَةَ وَحَذارِ أَنْ تَقَعَ فِى أُحْبُولَتِهِ (مِصْيَدَتِهِ) الّتى أَعَدَّها لِلفَتْكِ بِكَ ، والثَّأْرِ لِنَفْسِهِ الْمَوْتُورَةِ مِنكَ »

فَقالَ لَهُ «أنْطُنْيو» : « سَتَعُودُ إِلَىّ سُفُنِى قَبْلَ أَنْ يَنْقَضِىَ شَهْرانِ . ولَنْ أعْجِزَ عنِ الوَفاءِ بِهٰذا الدَّيْنِ قَبْلَ الْمَوْعِدِ الّذِى اشْتَرَطَهُ عَلَيْنا بِزمنٍ طَويلٍ . »

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ « أنْطُنْيو » قائلا : « وهَلْ سَمِعْتَ — يا صَدِيقِى — أَنَّ أَحَدًا يَجْرُؤُ عَلَى أَخْذِ رِطْلٍ مِن لَحْمِ إِنْسان ؟ كَلّا ! لا سَبِيلَ إلى ذٰلِكَ ، وَإِنَّما هِىَ دُعابَةٌ مُحْتَمَلَةٌ ، وَمُزاحٌ مُسْتَمْلَحٌ ، مِنَ الشَّيْخِ الْماكِرِ الظَّرِيفِ « شَيْلوكَ » . »

فَقال « شَيلوك » مُتَوَدِّدًا مُتَحَبِّبًا ، فِي لَهْجَةٍ رَقِيقَةٍ ، وَأُسْلوبٍ عَذْبٍ أَخّاذٍ (جَذّابٍ) :

« شَدَّ ما يُدْهِشُنِي أَنْ يَحْمِلَ سَيِّدايَ : « باسَنْيُو » وَ« أَنْطُنْيُو » ما سَمِعا مِنْ كلامِي عَلَى مَحْمِلِ الْجِدِّ ، وأَنْ يُساوِرَهُما الْقَلَقُ ، ويَمْلَأَ نَفْسَيْهِما الْحَذَرُ . وَإِلّا فَخَبِّرانِي بِرَبِّكُما ماذا يُجْدِينِي هٰذا الرِّطْلُ مِنْ لَحْمِ الصَّدِيقِ « أَنْطُنْيو » ؟ أَحَسِبْتُمانِي فِي شَوْقٍ إِلى أَكْلِهِ ؟ وَما قِيمَةُ هٰذا الرِّطْلِ ؟ وَما فائِدَتُه لِي ؟ وَهَلْ هُوَ أَثْمَنُ مِنْ لَحْمِ خَرُوفٍ أَوْ عِجْلٍ أَوْ ثَوْرٍ ؟

كَلّا ! كَلّا ! لا يُساوِرْكُما الْقَلَقُ ، ولا يُطَوِّحْ بِكُما الْوَهْمُ إِلى الظُّنُونِ الْفاسِدَةِ . وَلْتَكُونا عَلَى ثِقَةٍ أَنَّنِي لا أُرِيدُ بِهٰذا الِاقْتِراحِ إِلّا الدُّعابَةَ الْبَرِيئَةَ والتَّسْلِيَةَ الْخالِصَةَ . وَقَدْ رَأَيْتُ فِي هٰذِهِ الْوَسِيلَةِ ما يَضْمَنُ لِي حُبَّكُما وَإِخْلاصَكُما . وَهٰذانِ أَقْصَى ما تَطْمَحُ إِليهِ نَفْسِي ، فَإِذا أَبَيْتُما أنْ تُقِرّا هٰذا الِاقْتِراحَ فَلَنْ أَعْدِلَ عَنْهُ ، وَلَكُما أَنْ تَعُودَا مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُما مِنْ غَيْرِ أَنْ تَحْنَقا (تَغْتاظا) عَلَيَّ ، فَلَسْتُ أُصَدِّقُ مَنْ لا يُصَدِّقُنِي ، وَلا أُولِي ثِقَتِي (لا أَمْنَحُها) مَنْ لا يُولِينِي ثِقَتَهُ ! »

وَكانَ الشَّيْخُ « شَيْلوكُ » يَنْطِقُ بِهٰذِهِ الْكَلِماتِ بِصَوْتٍ تَكادُ

تَخْنُقُهُ الْعَبَرَاتُ (الدُّموعُ) .

فَقَالَ « أَنْطُنْيو » : « لَنْ أَتَرَدَّدَ فِي قَبُولِ اقْتِرَاحِكَ ! »

فَصَرَخَ « باسَنْيُو » فِي وَجْهِ صَدِيقِهِ ، وَقالَ :

« كَلَّا ، لا تَنْخَدِعْ ، فَلَسْتُ آمَنُ مَكْرَ هٰذا الرَّجُلِ ! »

٦ — نجاحُ « شيلوكَ »

وَقَدْ حاوَلَ « باسَنْيُو » جُهْدَهُ — أَنْ يُحَوِّلَ صَدِيقَهُ عَنْ عَزِيمَتِهِ ، فَلَمْ يَزِدْهُ إلْحاحُهُ إلَّا إصْرارًا وعِنادًا .

وهٰكَذا أَمْضَى « أَنْطُنْيو » ذٰلِكَ الْعَقْدَ ، وَقَبِلَ ما اشْتَرَطَهُ عَلَيْهِ « شَيْلُوكُ » مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْدُرَ عَوَاقِبَ هٰذِهِ الْجُرْأَةِ ، وما قَدْ تَجُرُّهُ عَلَيْهِ مِنْ وَيلاتٍ ومَتاعِبَ .

ثُمَّ أَخَذَ المالَ مِنْ « شَيْلُوكَ » ، وأَعْطاه صَدِيقَه « باسَنْيُو » ، وقالَ لَهُ :

« تَسْتَطِيعُ أَنْ تُسافِرَ عَلَى الطائِرِ الْمَيْمُونِ (السَّعيدِ الْمُوَفَّقِ) ، وتَعُودَ إلى صَدِيقِك مُكَلَّلاً بِالظَّفَرِ ، قَرِيرَ الْعَيْنِ بِنَجاحِ مَسْعاكَ النَّبِيلِ . »

فَشَكَرَ لَهُ « باسَنْيُو » إخْلاصَهُ ووفاءَهُ ، واعْتَزَمَ السَّفَرَ فِي الْيَوْمِ التَّالي .

١ – « پُرْشا » الحَسْناءُ

كانَتْ « پُرشا » الحَسناءُ الَّتى سافرَ « باسَنْيو » للزَّواجِ بِها ، فَتاةً فى مُقْتَبَلِ الشَّبابِ ، قَدِ اُجْتَمَعَت لَها كلُّ أَسبابِ الْغِنَى والْحُسْنِ ، وكَمَّلَتْها



مزايا الْخُلُقِ الْعالى ، والْأَدَبِ النَّادرِ ، وجَمَعَت – إلى وفْرَةِ الْغِنَى – صَفاءَ النَّفسِ ، فَأَصْبَحَتْ بيْنَ مُعاصِريها (أهْلِ عصْرِها) مِثالَ النُّبْلِ والطُّهْرِ .

وأقْبَلَ سَراةُ النّاسِ (أشْرافُهُمْ) — مِن أقْصَى البلادِ — يرْغَبونَ فى الزّواجِ بِها ، ويَمْلأُ نُفوسَهم الرّجاءُ فى الظّفَرِ بهٰذهِ الطِّلْبةِ الْعزيزَةِ الْمَنالِ (الرّغْبَةِ الّتى يَصْعُبُ إدْراكُها) .

وكانَ النّاسُ يُكْبِرُونَ فيها ما وهَبَها اللهُ منْ صَباحَةِ وَجْهٍ ، ورَجاحَةِ عقْلٍ ، وطِيبَةِ قَلْبٍ .

وكانَتْ تُقِيمُ الْمَآدِبَ الْفاخِرَةَ فى قَصْرِها — بَيْنَ حِينٍ وآخَرَ — فَلا يَترَدَّدُ فى تَلْبِيَةِ دَعْوَتِها سَرِىٌّ عَظيمٌ ؛ يَجْتَمِعُ عِلْيَةُ الْقَوْمِ (أعْيانُهُمْ) عِنْدَها ، فَيَتَناقَلُونَ أشْهَى الْأحادِيثِ وأعْذَبَ الْأسْمارِ . وكانَ النّاسُ يَعْتَقِدُونَ أنّ هٰذِهِ الْفَتاةَ قَدْ تَمّتْ لَها كلُّ أسْبابِ السّعادَةِ والصّفاءِ .

٢ — آلام « پُرشا »

ولَمْ تَكُنْ « پُرْشا » سَعيدةً — كما يَظنُّ النّاسُ — بَلْ كانَت ساخِطَةً مُتَبَرِّمَةً شَديدَةَ الْألَمِ تَنْدُبُ سُوءَ حَظِّها ، وتَشْكُو بَثَّها (حالَها وحُزْنَها) إلى خادِمِها الْوَفيّةِ الأَمينَةِ « نِرْسِيا » .

أراكَ تَعْجَبُ مِمَّا أقُصُّهُ عليكَ ، وتحسَبُنِي مُسْرِفًا فيما أقولُ ! وتَسْأَلُنِي : كَيْفَ تَشْقَى مِثْلُ هٰذهِ الْفتاةِ بَعْدَ أَنْ تهيَّأَتْ لها كلُّ أسْبابِ السَّعادَةِ والتَّوْفيقِ ؟

وما أَجْدَرَكَ بِهٰذا الْعَجَبِ ! فقَدْ كنْتُ أعجَبُ مِنْ ذٰلكَ — كما تَعْجَبُ أنْتَ — ولٰكِنَّني بَحَثْتُ عَنْ مَصْدَرِ شَقائِها وآلامِها حَتَّى اهْتَدَيْتُ إِلَيْهِ ، فزالَتْ دَهْشَتِي ، وانقضَى عَجَبي . ومَتَى عُرِفَ السَّبَبُ ، بَطَلَ الْعَجَبُ . ولوْ أُتيحَ لَكَ أَنْ تَسْتَمِعَ إِلَيْها وهيَ تَشْكُو لِخادِمِها المُخْلِصَةِ ما يُساوِرُ نَفْسَها مِنَ الْحُزْنِ والْأَلَمِ ، لأَيْقَنْتَ بِصِحَّةِ ما أقُولُ .

٣ — مَصْدَرُ الآلامِ

لقَدْ كانَتْ « بُرْشا » تَقُولُ لِخادِمِها الْوَفِيَّةِ فى لَهْجَةِ الْمُتَأَلِّمةِ الْمَحْزُونَةِ : « شَدَّ ما بَرَّحَ بِيَ الضَّجَرُ ، وأَضْنانِيَ الْهَمُّ والْقَلَقُ ، حَتى كِدْتُ أَسْتَسْلِمُ لِلْيَأْسِ والْقُنُوطِ ، بعْدَ أنْ أَصْبَحْتُ لا أُطِيقُ الْحَياةَ فى هٰذا الْعالَمِ . »

أَسَمِعْتَ ما تَقُولُه « بُرْشا » وهَلْ كانَ يَدُورُ بِخَلَدِكَ (يَمُرُّ بِخاطِرِكَ)

— لَحْظةً واحِدَةً — أنَّ مِثْلَ هٰذهِ الْفَتاةِ تَضْجَرُ بالعالَمِ ، وتَضِيقُ بها الدُّنيا — على رُحْبِها — (على اتِّساعِها) ، وتَفِيضُ نَفْسُها لَوْعَةً وأَسًى ؟ فَما الَّذِى يُشْقِيها ؟

لَقَدْ كانَتْ تَلُوحُ للنَّاسِ مُشْرِقَةَ الأَسارِيرِ (خُطوطِ الوَجْهِ) ، وَضَّاحَةَ الْجَبِينِ (حَسَنَةَ الْوَجْهِ) ، مُتَأَلِّقَةَ الْعَيْنَيْنِ ، بَهِيَّةَ الطَّلْعَةِ ، بَسَّامَةَ الثَّغْرِ ؛ فكَيْفَ يُصَدِّقُ النَّاسُ أنَّ مِثْلَ هٰذهِ الْفَتاةِ تَحْمِلُ بَيْنَ جَنْبَيْها أَلَمًا وحُزْنًا ؟

وكانَ فى قَصْرِها أَثْمَنُ الْمَتاعِ وأفْخَرُ الأَثاثِ . فَإذا فَتَحَتِ النَّافِذَةَ رأَتْ أمامَها حَدِيقةً فَسِيحَةً غَنَّاء . تَكْتَنِفُ الْقَصْرَ ، وتَحْوِى مِنْ ألوانِ الأَزْهارِ والرَّياحِينِ ما لا يُحِيطُ بِهِ الوَصْفُ . فكَيْفَ يُصَدِّقُ النَّاسُ أنَّها مَحْزُونةٌ مُتأَلِّمةٌ ؟ وماذا يُضْجِرُها وقَدِ اجْتَمَعَتْ لَها كُلُّ أَسْبابِ السَّعادَةِ ، وتَهَيَّأَتْ لَها جالِباتُ الصَّفاءِ والسُّرُورِ ؟

لَعلَّ هٰذا الرَّخاءَ الَّذِى يَكْتَنِفُها كانَ مَصْدَرَ ضَجَرِها وسَأَمِها ، فَإِنِ النَّفْسَ قَدْ تَضْجَرُ مِنَ الرَّاحَةِ كَما تَضْجَرُ مِنَ الْعَناء . ولَيْسَ أشَقَّ على النَّفْسِ مِنْ أَنْ تَحْيا حَياةً مُتَشابِهَةً ، وَتَقْضِىَ عُمْرَها كُلَّهُ على وَتِيرَةٍ

(طَريقةٍ) واحِدَةٍ ، فتمرُّ بها أيَّامُ الْحياةِ ، وكأنَّها – لِتَماثُلِها – يَوْمٌ واحدٌ يَتَكَرَّرُ !

لَقَدْ كانَتْ « پُرْشا » مُتألِّمةً ، لِأنَّها كانَتْ تَشْعُرُ أنَّ الوَقْتَ طويلٌ ، والسَّاعاتِ بَطيئَةٌ مُتثاقِلةٌ . وَهِيَ لا تجدُ ما يَشْغَلُها منَ الأعْمالِ . وَلِذٰلِكَ تُوقِنُ أَنَّ الرَّاحةَ تُضْني الْجِسْمَ (تُمْرِضُهُ) أكْثَرَ ممَّا يُضْنيهِ الْعَمَلُ الْمُتَواصِلُ الشَّاقُّ .

٤ – بين « پُرشا » و « نِرْسِيا »

وكانَتْ « نِرْسِيا » تَعْجَبُ من آلامِ سَيِّدَتِها « پُرْشا » ، وتَدْهَشُ لِما يَبْدُو على أساريرِها مِنْ أماراتِ الضَّجَرِ وَالضِّيقِ . فَقَدْ كانَتْ « نِرْسِيا » تَقْضِي وَقْتَها كلَّهُ فِي أَعْمالِ الْبَيْتِ ، فَلا تَشْعُرُ بِطُولِ الْوَقْتِ ، لِأَنَّها لا تُضِيعُ لَحْظَةً بِلا عَمَلٍ . فَهِيَ ناشِطَةٌ دائِبَةٌ على تَرْتيبِ الأثاثِ ، وَتَنْسِيقِ الرِّياشِ (متاعِ الْمَنْزِلِ وَفِراشِهِ) ، وَتَنْظِيمِ الْغُرَفِ ، وتَجْمِيلِ الْبَيْتِ ، وَتَعَهُّدِ الْحَدِيقَةِ (رِعايَتِها) . فَإذا أنْجَزَتْ أَعْمالَها ، وَأَتَمَّتْ أَداءَ فُرُوضِها وَواجِباتِها ، جَلَسَتْ إِلَى « پُرْشا » تَلُومُها عَلى تَبَرُّمِها

وَسُخْطِها . وكانَتْ « نِرْسيا » تَتَحَدَّثُ إلى سَيِّدَتِها وَفى يَدِها قِطعَةٌ مِنَ الثِّيابِ الرَّقيقَةِ تَنْسُجُها ، وَتقُولُ لَها ساخِرَةً :

« أَحَقًّا أَنَّكِ سَئِمْتِ هٰذا العالَمَ وَبَرِمْتِ بِهِ ؟ قدْ يكونُ لكِ عُذْرٌ — يا مَوْلاتى — فى هٰذا الضَّجَرِ ! وَلٰكِنَّنِي لا أَعْلَمُ ذٰلكِ الْعُذْرَ الْعَجيبَ ، وَلا أَسْتَطِيعُ أنْ أَفْهَمَهُ ! وَلَقَدْ كُنْتُ أُقِرُّكِ (أُوافِقُكِ) عَلَى صِدْقِ شَكْواكِ ، لَوْ أَنَّ أَسْبابَ شَقائكِ وتعاسَتِكِ رَجَحَتْ (غَلَبتْ) أَسْبابَ سَعادَتِك وهَناءَتكِ . ولَسْتُ أَدْرى : كَيْفَ تُغمِضِينَ عَيْنَيْكِ عَنْ هٰذهِ السَّعاداتِ الشّامِلَةِ الّتى تَكْتَنِفُكِ وَتَحُوطُكِ وتَرْعاكِ ؟ وَهَلْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْهَمَ أَنَّ هٰذه النِّعَمَ الْمَوْفُورَةَ قدْ ثَقُلَتْ عَلَى نَفْسِكِ ، فَلَمْ تُطِيقى التَّمَتُّعَ بِها ، وأَصْبَحْتِ تَنُوئِينَ بِعِبْئِها الْفادِحِ . »

وكانَتْ « بُرْشا » شَديدةَ الْأَلَمِ مِنْ هٰذهِ السُّخْرِيَةِ اللاذِعَةِ (اللاسعَة) ؛ ولٰكِنَّها لَمْ تَغْضَبْ عَلَى « نِرْسيا » ، وَالْتَمَسَتْ لَها — فى تَهَكُّمِها واسْتِهْزائِها — عُذْرًا . لِأَنَّها عَلِمَتْ أَنَّها تَجْهَلُ مَصْدَرَ آلامِها وأَحْزانِها .

٥ — شِكايةُ « بُرْشا »

وَاعْـتَزَمَتْ « بُرْشا » أَنْ تَبُوحَ لِخَادِمِها « نِرْسيا » بِسِرٍّ ما يُساوِرُ نَفْسَها مِنَ الْهَمِّ والْقَلَقِ . فقالَتْ لها :

« أَلا تَشْرَكِينَنِي الرَّأْيَ فى أَنَّ الْعَجْزَ مَجْلَبَةُ الشّقاء ؟ وَأَىُّ شَىْءٍ أَدْعَى لِلأَلَمِ والْحُزْنِ مِنْ أَنْ أَجِدَنِى عاجِزَةً عَنْ تَخَيُّرِ زَوْجِى؟ فَلا أَنا قادِرَةٌ عَلى قَبولِهِ ، وَلا قادِرَةٌ عَلى رَفْضِه ! آهٍ لِهٰذا الضّجَرِ الَّذِى كادَ يَنْفَطِرُ (يَنْشَقُّ) لهُ قَلْبِى ! فَقَدْ رَأَى أَبِى - قُبَيْلَ مَوْتِه — رأْيًا عَجِيبًا ، لا أَفْهَمُ لهُ مَعْنًى ، وَلا أَستطِيعُ أَن أُدْرِكَ لهُ مَغْزًى ! »

ثُمَّ سَكَتَتْ « بُرشا » لَحْظَةً ، وَاسْتَأْنَفَتْ كلامَها قائِلَةً :

« انْظُرِى إلَى هٰذهِ الصَّناديقِ الثَّلاثَةِ ، أَلا تَرَيْنَها مُتَساوِيَةَ الْحَجْمِ مُخْتَلِفَةَ الْمَنْظَرِ ؟ »

وكانَتْ هٰذهِ الصَّناديقُ الثَّلاثةُ شُغْلَها الشّاغِلَ . فَهِىَ تُكْثِرُ مِنَ التَّفْكِيرِ والتَّأَمُّلِ فيها ، وَلا تَزالُ تُفَكِّرُ — مَحْزُونَةً — حَتى يُسْلِمَها حُزْنُها إلى الْيَأْسِ . أَتَعْرِفُ لِماذا شَغَلَتْ هٰذهِ الصَّنادِيقُ صاحِبَتَنا

« بُرْشا » إنِّى مُخْبِرُكَ الْخَبَرَ الْيقينَ : لَقَدْ كانَ أَحَدُ هٰذِهِ الصَّناديقِ مَصْنُوعًا مِنَ الذَّهَبِ الوهَّاجِ (لهُ بَرِيقٌ لامِعٌ) وكانَ الصُّنْدُوقُ الثَّانِى مَصْنُوعًا من الْفِضَّةِ الْخالِصَة . أمَّا الصُّنْدُوقُ الثَّالِثُ ، فكانَ مَعْدِنُهُ مِنَ الرَّصاصِ .

٦ — صُورَةُ « بُرْشا »

وَقَدْ وَضَعَ أَبوها تِلْكَ الصَّناديقَ الثلاثَةَ فى أَحدِ أَرْكانِ الْغُرْفَةِ ، وَوَضَعَ فِى أَحَدِها صُورَةَ فَتاتِه : « بُرْشا » الْحَسْناء .

ولٰكِنْ فى أَىِّ هٰذِهِ الصَّنادِيقِ وَضَعَ صُورتَها ؟ ذٰلِكَ ما تَجْهَلُهُ « بُرْشا » كما يَجْهَلُهُ كلُّ إنْسانٍ !

لَقَدْ أَمَرَها أَبُوها — وَهُوَ عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ — أَنْ تَتْرُكَ هٰذه الصَّناديقَ الثَّلاثَةَ حَيْثُ هِىَ ، وَحَذَّرَها أَنْ تَفْتَحَها ، بَعْدَ أَنْ أَفْضَى إلَيْها (أَخْبَرَها) أَنَّ هٰذه الصَّناديقَ ستَرْشِدُها إلى الرَّجُلِ الْجَدِيرِ بالزَّوَاجِ بها . وَحَتَمَ عَلَيْها أَنْ تَتْرُكَ لِخاطِبِها اخْتِيارَ صُنْدُوقٍ مِنْها ، فإذا فَتَحَهُ وَرَأَتْ صورتَها — الَّتى وَضَعَها أَبُوها — رَضِيَتْهُ زَوْجًا لَها وَإلّا رَفَضَتِ الزَّوَاجَ بِه ، بالِغًا ما بَلَغَ مِنَ الثَّراءِ وَالْجاهِ (عُلُوِّ الْمَنْزِلَةِ) .

٧ — نَصِيحةُ « بِرْسِيا »

قُلْتُ لكَ — أيُّها الْقارِئُ الْعزيزُ — فى أَوَّلِ هٰذِهِ القِصَّةِ : إنَّ « بُرْشا » جَمَعَتْ — إلى جَمالِها الْباهِرِ — خُلُقًا عالِيًا ، وَثَرْوةً ضَخْمةً . فَلا غَرْوَ (فَلا عَجَبَ) أنْ يَكْثُرَ الرَّاغِبُونَ فى الزَّواجِ بِها ، مِنْ سَراةِ القَوْمِ ، وعِلْيَةِ النَّاسِ (أعْيانِهِمْ) . وَقدْ أقْبلَ علَيْها ساداتُ البِلادِ — مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ — وَكلُّهُمْ راغِبٌ فى أنْ تَكُونَ شَرِيكَةَ حَياتِهِ . وَلٰكِنَّها — إلى تِلكَ اللَّحْظَةِ — لم يَقَعِ اخْتِيارُها عَلَى أحدٍ مِنْ أُولٰئِكَ الْعُظَماءِ والْأُمَراءِ .

وَلَمْ تَكُنْ « بُرْشا » تُؤْمِنُ بِالْمُصادَفَةِ الْحَسَنَةِ ، فَخافَتْ أَنْ يقَعَ اخْتِيارُ أحدِ الْأشْرارِ عَلَى الصُّنْدُوقِ الَّذى يَحْوِى صُورَتَها .

وَشَكَتْ أمْرَها إلى خادِمِها « بِرْسِيا » الْحَصِيفَةِ (الْعاقِلَةِ) ، فقالَتْ لَها « بِرْسِيا » :

« كُونِى عَلَى ثِقَةٍ مِنْ بُعْدِ نَظَرِ أبيكِ — يا مَوْلاتِىَ الْعزيزَةَ — وَرجاحَةِ عَقْلِهِ . واعْلَمِى أنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ إلَّا تَوَخِّيًا (تَخَيُّرًا وَقَصْدًا) لِخَيْرِكِ وَسَعادَتِكِ . »

فتنهدت « برشا » الحسناء ، وقالت في لهجة حزينة : « آه لك يا عزيزتي ! فما أظنك إلا واهمة في ظنك . وإني ليساورني هم وقلق كلما تمثل لي المستقبل الغامض . وكم يتملكني الجزع والرعب حين أفكر في وصية أبي ، وأرى — من المحتمل — أن يظفر أحد الغادرين (الذين لا يحفظون العهد) بالاهتداء إلى الصندوق الذي وضع أبي صورتي فيه . وليس بعجيب أن يسعد الحظ رجلا ممن لا يستحق أن يشاركني الحياة الزوجية ، فلقد طالما رأينا طوائف من صغار النفوس يساعفهم الحظ ، ويتيح لهم الزمن أثمن الفرص التي لا يظفر بها كرام الناس وأخيارهم .

ومن يدريني ؟ لعل فتى لئيم الطبع يظفر بمأربته (مقصده) ، ويسعد بالزواج بي ، على حين لا يظفر بي فتى آخر ، سري (نبيل شريف النفس) .

كلا ! كلا ! يا « نرسيا » ، لقد اشتط أبي (جاوز الحد) في مطلبه ، ولم يكن — فيما أرى — حازما متبصرا حين ترك للمصادفة العمياء — وحدها — اختيار شريكي في الحياة . »

٨ – كتابُ « باسَنيو »



وَما كادَتْ « بُرْشا » تُتِمُّ هٰذِهِ الْكلماتِ ، حتَّى أَقْبَلَ عَلَيْها خادِمٌ – مِنْ خَدَمِها – يَحْمِلُ كِتاب « باسَنيو » إِلَيْها فقَرَأَتْهُ « بُرْشا » . فعَلِمَتْ – مِنْ فَحْواهُ (مِنْ خُلاصَتِهِ) – أَنَّ السَّيِّدَ « باسَنْيو » سيَحْضُرُ إِلى قَصْرِها فِي ذٰلِكَ الْمَساء .

فَتَهَلَّلَ وَجْهُها بِشْرًا ، وَقالَتْ :

« يا لها مِنْ سَعادَةٍ نادِرَةٍ ! لَقَدْ رأيْتُ ذلِكَ السَّيِّدَ النَّبيلَ — مِنْ قَبْلُ — وَأُعْجِبْتُ بِشمائِلِهِ وَأخْلاقِهِ الْكَريمَةِ ، وَلَمْ أسْمَعْ عَنْهُ إلَّا أَحْسَنَ الْأَنْباءِ ، وَأكْرَمَ الْخِلالِ (أشْرَفَ الْخِصالِ) . وَلَوْ تُرِكَ الْأَمْرُ إلَيَّ ، لَما اخْتَرْتُ غَيْرَهُ شَريكًا لِي في الْحَياةِ . وَلٰكِنَّني عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أنَّهُ سَيُخْفِقُ في الِاخْتِيارِ . وَلَنْ يُسْعِدَهُ الْحَظُّ بِالِاهْتِداءِ إلى الصُّنْدُوقِ الَّذي وَضَعَ أبي صُورَتي فيهِ . »

فَقالتْ لها « نِرْسيا » : « إذا كانَ عَلَى ما وَصَفْتِ مِنْ خِلالٍ ، فَإنَّ اللهَ مُوَفِّقُهُ إلى السَّعادَةِ والْخَيْرِ ، وَمُحَقِّقٌ رَجاءَ أَبيكِ الْحَكيمِ . »

فقالَتْ « بُرْشا » : « لَسْتُ أمْلِكُ لَهُ إلَّا الدُّعاءَ بالنَّجاحِ والتَّوْفيقِ . أمَّا أنْتِ فَعَليكِ أنْ تُرَتِّبي الْمُعَدَّاتِ لِاسْتِقبالِهِ ، فَهُوَ سَيِّدٌ نَبيلٌ ، جَديرٌ بالْحَفاوَةِ (حَقيقٌ بِالعِنايَةِ والرِّعايَةِ) . فَلَا تَدَّخِري وُسْعًا في إكْرامِهِ . وَلْيَحُلَّ عِنْدَنا أهْلًا ، وَمَكانًا سَهْلًا ، وَلْيُقِمْ في بَيْتِنا عَلَى الرُّحْبِ وَالسَّعَةِ . »

١ — فى قصْرِ « بُرْشا »

ولَمَّا أقْبَلَ الْمَساءُ حَضَرَ السَّيِّدُ « باسَنْيو » إلى قَصْرِ « بُرْشا » الْحَسْناء، وكانَتْ قَدْ أعَدَّتْ لَهُ مَأْدُبَةً فاخِرَةً، دَعَتْ إلَيْها سَرَاةَ الْقَوْمِ وأعْيانَ الْمَدينَةِ. فَلَمَّا رَأَوْا « باسَنْيُو » — قادِمًا — رَحَّبُوا بهِ، وهَشُّوا لِمَقْدَمِهِ. واحْتَفَتْ بهِ الآنِسَةُ « بُرْشا » وهَنَّأَتْهُ بالسَّلامَةِ، فَشَكَرَ لَها ولِلْحاضِرِين ما غَمَرُوهُ بهِ مِنْ عَطْفٍ ورِعايَةٍ، وأَنْساهُ سُرُورُهُ وابْتِهاجُهُ كلَّ ما لَقِيَهُ منْ عَناء السَّفَرِ، ومَتاعِبِ الطَّرِيقِ. وظَلُّوا يَسْمُرُونَ، ويتَناقَلونَ أَعذَبَ الأحاديثِ ساعةً كاملةً. وقَدْ غَمَرَهُمُ الْفَرَحُ، واسْتَوْلى عَلَيْهِمُ السُّرُورُ.

٢ — ساعَةُ الِاخْتِيار

ولَـكِنَّ « باسَنْيُو » لَمْ يَسْتَطِعْ صَبْرًا على كِتْمانِ ما فى نَفْسِهِ. فَقَدْ كانَ يَتَحَرَّقُ شَوقًا إلى الْفَصْلِ فى أَمْرِ الزَّواجِ، فَإمّا حالفَهُ الْحَظُّ

فَظفرَ بِطِـلْبَتِهِ (فازَ بحاجَتِهِ)، وإمَّا أَخْفَقَ فى إِدْراكِها ، فَاسْتَراحَ إلى الْيَأْسِ . وَالْيَأْسُ — كما يَقُولون — إحْدَى الرَّاحَتَيْنِ !

فجَزِعَتْ « بُرْشا » مِنِ اقْتِراحِ « باسَنْيُو » ، وأَشارَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَرَيَّثَ (يَتَرَوَّى) فى أَمْرِهِ ، ويُرْجِئَهُ (يُؤَخِّرَهُ) إلى أَحَدِ الْأَيَّامِ الْقابِلَةِ ، حَتَّى لا تُحْرَمَ بَقاءَهُ طَوِيلًا .

فَأَصَرَّ « باسَنْيُو » على اقْتِراحِهِ ، ولَمْ تَسْتَطِعْ « بُرْشا » وضُيُوفُها إقْناعَهُ بالْعُدُولِ عَنْ عَزْمِهِ . فَقالَتْ لهُ « بُرْشا » :

« كُنْ على ثِقَةٍ مِنْ أَنَّكَ مُغادِرُنا (تارِكُنا) فى الْغَدِ ، إذا أَخْفَقْتَ فى الاهْتِداءِ إلى الصُّنْدُوقِ الَّذِى وضَعَ أَبى فيه صُورَتى . »

فَقالَ لَها « باسَنْيو » :

« إنَّ قَلْبى يُحَدِّثُنى بأنَّ الْحَظَّ مُواتِىَّ (مُساعِدِى) ، وأَنَّ اللهَ مُوَفِّقِى إلى النَّجاحِ . وما أَحْسَبُنِى مَخْدُوعًا فى هٰذا الشُّعُورِ النَّبِيلِ . فَلا تُعَوِّقِينى (لا تَمْنَعِينى) عَنْ إِدْراكِ الظَّفَرِ ، فقَدْ حانتْ ساعَةُ النَّجاحِ ! »

٣ — أَمامَ الصَّناديقِ

ثُمَّ قامَ « باسَنْيُو » مُيَمِّمًا (قاصِدًا) رُكْنَ الْغُرْفَةِ لِيَخْتارَ أَحَدَ الصَّنادِيقِ . وكانتِ الْمُوسِيقَى تَصْدَحُ و تَعْزِفُ ، والقُلوبُ تَخْفُقُ إشْفاقًا مِنْ خَيْبَتِه . وبَدَا الْوُجُومُ (ظَهَرَ أَثَرُ الْخَوْفِ) عَلى أَسارِيرِ الْحاضِرِينَ ، وقَدْ أَيْقَنُوا بِخُسْرانِ « باسَنْيو » وَخَيْبَتِهِ فى الِاخْتيار .

وَكانَ « باسَنْيو » أَشَدَّهُمُ ارْتِباكًا وَاضْطِرابًا ، وَلٰكِنَّهُ تَجَلَّدَ (تَصَبَّرَ) ، وَأَخْفَى ما يُساوِرُ نَفْسَهُ مِنَ الْخَوفِ وَالْقَلَقِ . ثُمَّ وَقَفَ أَمامَ الصَّناديقِ يَتَأَمَّلُها ، ويُنْعِمُ النَّظَرَ فِيها ، وَقَدْ طافت بِرَأْسِه أفْكارٌ شَتَّى ، يَجْدُرُ بِكَ — أَيُّها القارِئُ الْعَزيزُ — أَنْ تَعْرِفَها . وإنِّى لَمُحَدِّثُكَ بِها ، وقاصُّها عَلَيْكَ :

٤ — نَجْوَى « باسَنْيُو »

كانَ « باسَنْيو » يَقُولُ فِى نفسِهِ ، وهُوَ يُنْعِمُ النَّظَرَ ، ويُمْعِنُ الْفِكْرَ ، فى تَعَرُّفِ ما تَحْوِيهِ الصَّنادِيقُ الثَّلاثَةُ :

« إنَّ الْمَظْهَرَ الْأَنِيقَ الْخَلَّابَ كَثِيرًا ما يَخْدَعُ النَّاسَ ، ويَبْهَرُ أَبْصارَهُمْ ، وَمَا أَظُنُّ صاحِبَ هٰذِهِ الصَّنادِيقِ إلّا رَجُلًا حَكِيمًا ، ثاقِبَ الفِكْرِ ، نافِذَ الرَّأْيِ ، بعيدَ النَّظَرِ . وَلَعَلَّهُ تَوَخَّى (أرادَ) أَنْ يَخْتَبِرَ عُقُولَ مَنْ يَتَصَدَّوْنَ (مَنْ يَتَعَرَّضُونَ) لِلزَّواجِ بابْنَتِهِ . وَكأَنَّما أَدْرَكَ — بِبُعْدِ نَظَرِهِ وَأَلْمَعِيَّتِهِ (صِدْقِ فِراسَتِهِ وَظَنِّهِ) — أَنَّ أَكْثَرَ الشَّبابِ يَخْدَعُهُ الْمَنْظَرُ الْبَرَّاقُ ، فَيَحْسَبُ أَنَّ صُورَةَ « پُرشا » لا يُمْكِنُ أَنْ تُوجَدَ إلّا فى الصُّندوقِ الذَّهَبِيِّ ، أو الصُّنْدُوقِ الْفِضِّيِّ .

وَما أَحْسَبُ صُورَتَها إلّا فِي الصُّنْدُوقِ الرَّصاصِيِّ !

إنَّ الذَّهَبَ — عَلى بَرِيقِهِ وبَهاءِ لَوْنِهِ — مَعْدِنٌ حَقِيرٌ . وقَدْ فُتِنَ النّاسُ بِهِ ، وتَهافَتُوا (تَساقَطُوا) عَلَيْهِ ، مُنْذُ أَقْدَمِ الْأَزْمِنَةِ ، وإنْ لَمْ يُجْدِهِمْ (لَمْ يَنْفَعْهُمْ) ظَفَرُهُمْ بِهِ شَيْئًا . وَالْفِضَّةُ بَرَّاقَةٌ خَادِعَةٌ . وَهِيَ — كالذَّهَبِ — حَقِيرَةُ الشَّأْنِ ، قَلِيلَةُ الْخَطَرِ ، وإنْ فُتِنَ النَّاسُ بِهِما ، وَهامُوا (أُغْرِمُوا) بِحُبِّهِما ، وَتَحَرَّقُوا شَوْقًا إلى الْحُصُولِ عَلَيْهِما .

أَمَّا الرَّصاصُ فَهُوَ — عَلى شُحُوبِ لَوْنِهِ — مِنْ أَنْفَعِ الْمَعادِنِ وأَجْداها عَلى النّاسِ . ولنْ يَخْدَعَنى بَرِيقُ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ عَنْ أَصالَةِ الرَّصاصِ

وفائدَتهِ ، وخُلُوِّه مِنَ الْبَهْرَجِ الْخادعِ الْخَلَّابِ . أَيُّها الصُّنْدُوقُ الرَّصاصِيُّ : لَنْ أَرْضَى بِكَ بَدِيلًا ، ولَنْ أَخْتارَ غَيْرَكَ ! »

٥ — الْجَدُّ السَّعيدُ

ثُمَّ قالَ « باسَنْيو » في لَهْجَةِ الْواثِقِ الْمُطْمَئِنِّ إلى الظَّفَرِ :

« لَنْ أَخْتارَ إلَّا الصُّنْدُوقَ الرَّصاصِيَّ ، ولَعَلِّي قَدْ وُفِّقْتُ في الِاخْتِيارِ ، وظَفِرْتُ بالسَّعادَةِ الَّتي أَنْشُدُها (أَطْلُبُها) . »

وَقدْ جَزِعَ الْحاضِرُونَ حِينَ سَمِعُوا مِنْهُ هٰذا الْكلامَ ، وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ قَدْ أَخْفَقَ في سَعْيِهِ ، وخَسِرَ تَحْقيقَ أُمْنِيَّتِهِ .

وتَقَدَّمَتْ « بُرْشا » إلى الصُّنْدُوقِ الرَّصاصِيِّ ، وفَتَحَتْهُ — وَيَداها تَرْتَجِفانِ — وَهِيَ واثِقَةٌ مِن إخْفاقِ « باسَنْيو » .

وَما فَتَحَتِ الصُّنْدُوقَ حتى راعَها صِدْقُ فِراسَتِهِ ، وبُعْدُ نَظَرِهِ .

وَلا تَسَلْ عَنْ دَهْشَةِ الْحاضِرِينَ ، فَقَدْ تَمَلَّكَهُمُ الْعَجَبُ ، فكادوا لا يُصَدِّقُونَ ما رَأَوْهُ .

يا لَلْجَدِّ (يا لَلْحَظِّ) السَّعيدِ ! لَقَدْ وَجَدَ « باسَنْيو » صُورَةَ « پُرْشا » في الصُّنْدُوقِ الرَّصاصِيِّ . فارْتَفَعَتْ أَصْواتُ السُّرورِ والْفَرَحِ ، وتَهَلَّلَ



وَجْهُ « باسَنْيو » بِشْرًا وأُنْسًا بِهٰذا الْفَوْزِ الْعَظِيمِ . وَرَأَى إِلى جانِبِ الصُّورَةِ بِطاقَةً كُتِبَتْ عَلَيْها الأَبْياتُ التَّالِيَةُ :

« يا أَيُّهـا الْمُوَفَّقُ السَّعِيدُ رَأْيُكَ — فيما اخْتَرْتَهُ — سَدِيدُ

وَأَنْتَ – فيما جِئْتَهُ – رشيدُ وكلُّ ما فَعَلْتَهُ حَمِيــدُ

* * *

كَمْ يَخْدَعُ الْأَلْبابَ مَنْظَرٌ عَجَبْ غَطَّى قَبيحًا مِنْ سَجايا وحَجَبْ
ما كلُّ ما يَبْرُقُ لَمّاعًا: ذَهَبْ! فَلا يُغَرَّ الْكَيِّسُ الرّشِــيدُ

* * *

حَسْبُكَ أَنْ وُفِّقْتَ فى اخْتِيارِكا وَأَنْ بَلَغْتَ النُّجْحَ فى اخْتِبارِكا
فَعِشْ قَرِيرَ الْعَيْنِ بِانْتِصــارِكا حَلِيفُكَ التَّوْفِيقُ وَالسُّعُودُ.»

* * *

فَأُعْجِبَ الْحاضِرُونَ بِما تَحْوِيهِ هٰذِهِ الْأَبْياتُ مِنْ حِكَمٍ بارِعَةٍ وآراءٍ صادِقَةٍ. وَظَفِرَ «باسَنْيو» بِكُلِّ ما أَرادَ. وأَصْبَحَ جَدِيرًا أَن يَتَزَوَّجَ «بُرْشا» الْحَسْناءَ. وَصارَ – مُنْذُ تِلْكَ السّاعَةِ – صاحِبَ هٰذا الْقَصْرِ الْعَظِيمِ وأَمِيرَهُ!

٦ – خاتَمُ الزَّواجِ

ثُمَّ نَزَعَتْ «بُرْشا» خاتَمًا ثَمِينًا مِن إِصْبَعِها، وَقَدَّمَتْهُ إلى «باسَنْيُو» قائِلَةً:

« هاكَ خاتَمَ الزّواجِ ، فاحْتَفِظْ بِهِ لِيَكُونَ أَحْسَنَ ذِكرَى لِهٰذا الْيَوْمِ السَّعيدِ . وَأُحَذِّرُكَ أَنْ تُفَرِّطَ فِيهِ ، وإلّا غَضِبْتُ عَلَيْكَ . فَإِنِّى لا أَرَى فِي فِقْدانِ الخاتَمِ إلا نَذيرَ سوءٍ لَنا جَميعًا . »

فَتَوَجَّهَتْ « بِرْسيا » إلى الْعَرُوسَيْنِ ، وَهَتَفَتْ مَسْرُورَةً :

« تَمّ الْفَوْزُ ! فاهْنَآ بالسَّعادَةِ ! واهْتِفا للسَّعادَةِ ! وانْعَما بِالسَّعادَةِ ! »

فَرَدَّدَ الحاضِرُونَ هُتافَها مَسْرُورِينَ .

٧ — مُفاجَأَةٌ مُحْزِنَةٌ

وَأَبَتِ الْمَقَادِيرُ (ما تُقَدِّرُهُ الأَيّامُ للنّاسِ) إلّا أنْ تُنَغِّصَ عَلَيْهِمْ هٰذا الصَّفاءَ ، وَصَحَّ — فى هٰذِهِ المَرّةِ قَوْلُ الشّاعِرِ :

« وعِنْدَ صَفْوِ اللَّيالِى يَحْدُثُ الْكَدَرُ ! »

فَقَدْ قَدِمَ عَلَيْهِمْ زَائِرانِ يَحْمِلانِ أَخْبارًا مُزْعِجَةً عَنْ « أَنْطُنْيو » — صَدِيقِ « باسَنْيو » — فَأَخْبَراهُ : أَنَّ صَدِيقَهُ « أَنْطُنْيو » قَدْ غَرِقَتْ سُفُنُهُ كُلُّها ، واسْتَحالَ على هٰذا التّاجِرِ النَّبيلِ أَنْ يَفِيَ بما عَلَيْهِ مِنَ الدَّيْنِ لِغَرِيمِهِ (دائِنِهِ) « شَيْلوكَ » — فى الْمَوْعِدِ — وأَنَّ « شَيْلوكَ »

انْتَهَزَ هٰذِهِ الْفُرْصَةَ لِلانْتِقامِ مِنْ عَدُوِّهِ اللَّدُودِ ، وأَصَرَّ على مُطالَبتِه بِرِطْلٍ مِنْ لَحْمِه .



فَما سَمِعَ « باسَنْيو » ذٰلِكَ حَتى امْتُقِـعَ وجْهُهُ ، وخانَهُ الْجَلَدُ ، وَعَزَّهُ الصَّبْرُ ، فارْتَمَى على كُرْسِيٍّ قَرِيبٍ مِـنْهُ .

***

فسألته « بُرْشا » عَنْ مَصْدَرِ آلامِهِ ، فَأَوْجَزَ لَها ما حَدَثَ لِصَديقِه ، فَحَزِنَتْ لِحُزْنِه ، وقالَتْ لهُ :

« لقَدْ أَخْبَرْتُكَ — يا عَزيزى « باسَنْيو » — أَنَّ كلَّ ما أَمْلِكُ قَدْ أَصْبَحَ مِلْكًا لكَ . فَخُذْ مِنَ الْمالِ ما تَشاءُ ، وَأَدِّ لِدائِنِكَ : « شَيْلوكَ » ما عَلى صَديقِكَ مِنْ دَيْنٍ . فَإِذا أَبَى ، وأصرّ على وَعيدِهِ ، فَأَعْطِهِ ضِعْفَ مالَهُ مِنَ الْمالِ . فَإِذا رَفَضَ فَأَعْطِه ثَلاثَةَ أَمْثالِهِ ، وهٰكذا حتى يُغْرِيَهُ المالُ بِالْعُدُولِ عَنِ انْتِقامِه . »

فارْتاحَت نَفْسُ « باسَنْيو » لِهٰذا الرَّأْيِ ، وشَكَرَ لَها ذٰلِكَ الِاقْتِراحَ النَّبيلَ .

ولَمْ يُطِقِ الْبَقاءَ إلى الْيَومِ التَّالى ، فَقامَ مِن فَوْرِهِ ، ورَكِبَ السَّفِينَةَ لَيْلًا — ومَعَهُ حاشيَتُهُ (حُرّاسُهُ وخَدَمُهُ) لِيُنْقِذَ صَديقَه « أَنطُنيو » قَبْلَ فَواتِ الْوَقْتِ .

١ — فى قاعَةِ الْمَحْكَمةِ

احْتَشَدَتِ الْجُمُوعُ فى قاعَةِ الْمَحْكَمَةِ ، لِيَرَوْا نَتيجَةَ الْحُكْمِ فى قَضِيَّةِ «أَنْطُنيو» — تاجِرِ «الْبُنْدُقِيَّةِ» — وَغَريمِهِ «شَيْلُوكَ» . وَقَدِ ازْدَحَمَتِ الْقاعَةُ الْكُبْرَى بِجَمْهَرَةِ النَّظَّارَةِ ، وَجَلَسَ «دُوقُ الْبُنْدُقِيَّةِ» (أَميرُها) عَلى كُرْسِيِّ الْقَضاء ، وَحَوْلَهُ مُسْتَشارُوهُ مِنْ شُيُوخِ الْبَرْلَمانِ .

ولبِثَ «أَنْطُنيو» يَتَرَقَّبُ حُكْمَ الْقَضاء جَزِعًا مَحْزُونًا ، وَهُوَ لا يَدْرِى ما يَخْبَؤُهُ لهُ الْقَدَرُ مِنَ الْمُفاجَآتِ .

٢ — قَسْوَةُ «شَيْلوكَ»

وَقَدْ حاوَلَ «أَنْطُنْيو» إِمْكانَهُ ، وَبَذَلَ قُصاراهُ (غايةَ جُهْدِهِ) فِى تَرْضِيَةِ «شَيْلُوكَ» وَاسْتِعطافه ، وَرَجاهُ أَلَّا يُنَكِّلَ بهِ . وَلَمْ يَتْرُكْ وَسِيلَةً مِنْ وَسائِلِ اللِّينِ إِلَّا سَلَكَها . فَتَوَسَّلَ إليه بِاسْمِ الإِنْسانِيَّةِ مَرَّةً ، وَبِاسْمِ الْمُرُوءَةِ مَرَّةً ثانِيَةً ، وَبِاسْمِ ابْنَتِهِ الْعَزِيزَةِ مَرَّةً ثالثةً . فَلَمْ يَزِدْهُ

ذٰلِكَ إلَّا عُتوًّا (جَبَرُوتًا وعُنْفًا وطُغْيانًا) واسْتِكْبارًا .

وَقالَ لَهُ « شَيْلوكُ » فى صَلَفٍ (كِبْرِياء) وَعَجْرَفَةٍ .

« لَنْ أُصيخَ (لَنْ أَسْتَمِعَ) إلى دُعائِكَ ، وَلَنْ أَنْسَى لَكَ تِلْكَ الإساءاتِ والإهانات التى أَلْحَقْتَها بِى ! أَلا تَذْكُرُ ما كُنْتَ تُنادِينى بهِ مِنْ أَلْقابِ التَّحْقِيرِ ؟ أَلا تَذْكُرُ كَيْفَ كُنْتَ تَدْعُونى تارَةً كَلْبًا ، وَتارَةً خِنَّوْصًا (خِنْزِيرًا) ؟ كَلَّا ! لا سَبِيلَ إلى الصَّفْحِ عَنْكَ . وَلا بُدَّ لِى مِنَ الانْتِقامِ مِنْكَ ، وَتَرْكِ أَمْرِكَ إلى القَضاء ، يَفْصِلُ فِيهِ بِما يَشاءُ . »

٣ — مَقْدَمُ « باسَنْيو »

وَقَدْ نَفَّذَ « شَيْلوكُ » وَعِيدَهُ ، وَتَرَكَ الأَمْرَ إلى القَضاء . وَجاءَ « باسَنْيو » — قُبَيْلَ افْتِتاحِ الْجَلْسَةِ — وَجَلَسَ إلى صَدِيقِهِ « أَنْطُنْيو » يُطَمْئِنُهُ ويُشَجِّعُه ويُسَرِّى عنه .

وَظَلَّ يُؤَكِّدُ لِصَدِيقِهِ أَنَّ « شَيْلُوكَ » لَنْ يُصِرَّ عَلَى مَطْلَبِهِ إذا ضُوعِفَ لهُ الْمالُ . وإِنَّهُ لَيَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ فِى ذٰلِكَ إذْ أَمرَ « الدُّوقُ » بإِحضارِ « شَيلوكَ » وأعْلَنَ ابْتِداءَ الْمُحاكَمَةِ .

٤ — حِوارُ « شيلوكَ »



وَدَخَلَ « شَيْلوكُ » إِلى قاعَةِ الْمَحْكَمَةِ ، وَقَدْ تَمَلَّكَ نَفْسَهُ الْحِقْدُ ، وَأَعْمَتْهُ شَهْوَةُ الِانْتِقامِ مِن عَدُوِّهِ عَنِ الرَّحْمَةِ والعَفْوِ . وَكانَ واثِقًا مِنَ الِانْتِصارِ عَلى « أَنطُنْيو » والتَّنْكيلِ بِهِ . وَلَمْ يَدُرْ بِخَلَدِهِ (لَمْ يَمُرَّ بِبالِه) أَنَّ الْبَغْيَ مَرْتَعُهُ وَخِيمٌ (أَنَّ الظُّلْمَ عاقِبَتُهُ سَيِّئَةٌ) ، وَأَنَّ عَلى الْباغِي (الْمُعْتَدِي) تَدُورُ الدَّوائِرُ (تُحِيطُ بِهِ الْمَصائِبُ) .

فَقالَ لَهُ « الدُّوقُ » : « فَكِّرْ يا « شَيْلُوكُ » فِيما حَلَّ بِغَرِيمِكَ

(مَدينكَ) : «أَنطُـنْيو» مِنَ النَّـكَبات الَّتى تَعطِفُ عليهِ قَلْبَ الْعدُوِّ قَبْلَ الصَّديقِ . وَاذْكُرْ أَنَّ الرَّحْمَةَ جديرَةٌ بالْأَعداءِ والْأَصْدِقاءِ ، عَلى السَّواءِ .

وَلا تَنْسَ أَنَّ «أَنطنْيو» كان — فى الْأَمْسِ الْقَريبِ — أَكْبرَ تاجرٍ فى مَدينةِ «الْبُنْدُقيَّةِ» قَبْلَ أَن تَغرَقَ سُفُنُه . فَأَىُّ قَلْبٍ لا يَعْطِفُ عليهِ وَيُوَسِّيهِ فى هٰذهِ الْكارِثةِ ؟ »

فَقالَ لهُ «شيلُوكُ» فى لَهْجَةِ الْمُتَشَبِّثِ الْمُعانِد :

« لِيَكُنْ سَيِّدِى الدُّوقُ الْجَليلُ على ثِقَةٍ مِنْ أَنَّنى لَنْ أَتْرُكَ حَقِّى ، أَيًّا كانَتِ الدَّواعى وَالْأَسبابُ .

لَقدْ أَخَذَ «أَنطُنيو» على نَفْسِهِ — يا سُمُوَّ الدُّوقِ — أَن يَعطِيَنِى رِطْلًا مِنْ لَحْمِهِ ، إِذا عَجَزَ عنْ أَداءِ ما عليهِ فى مَدَى ثلاثةِ أَشْهُرٍ . وَقَدْ مَرَّ الْمَوْعِدُ — الَّذِى عَيَّنَهُ — مِنْ غَيْرِ أَن يَرُدَّ إِلَىَّ الدَّيْنَ ، فَحَقَّ عليْهِ الْجَزاءُ ، وَلَنْ أُفَرِّطَ فى حَقِّى أَبدًا ! »

فقال «باسَنْيو» :

« فَإِذا أَعْطَيناكَ سِتَّةَ آلافٍ مِنَ الدَّنانيرِ فِى مُقابَلَةِ ثلاثةِ الآلافِ

الّتى أقْرَضْتَنا إيّاها ، فماذا أنْتَ قائلٌ؟ »

فقال لهُ « شَيلوكُ » : « لَوْ أَعْطَيْتَنِي — بكُلِّ دينارٍ منها — ستَّةَ دَنانيرَ ، لَما أَغْرانِي ذٰلِكَ بتَرْكِ حَقِّي فى رِطْلٍ مِنْ لَحْمِ « أنطُنيو » ! لَقَدْ أَصْبَحَ هٰذا الرِّطْلُ مِلْكًا لِي. وَلَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ أن أُحْرَمَ حَقِّي فيهِ . فَإذَا رَفَضْتُمْ إحْقاقَ الْحَقِّ ، وإزْهاقَ الباطِلِ ، فَلَنْ يَثِقَ النَّاسُ — بَعْدَ هٰذا اليَوْمِ — بِعَدالةِ الْقَضاء ونزاهَته ! »

فَقالَ « الدُّوقُ » : « لَقَدْ بَعَثْتُ إلى عالِمٍ قانونِيٍّ كَبيرٍ ، لِيحْضُرَ إلَيْنا ، وَيُبْدِيَ رَأْيَهُ فى هٰذهِ القَضِيَّةِ الّتى لَمْ يَرَ لَها الْقَضاءُ مَثيلًا . وَقَدْ وَقَعَ اخْتيارُنا عَلى « بَلَرْيُو » ، وَهوَ — كَما تَعْلَمُونَ — أَكْثَرُ عُلَماءِ عَصْرِه تفَقُّهًا (فَهْمًا) فى الْقانونِ ، وَخِبْرَةً بالشَّرائعِ . »

وَما كاد « الدُّوقُ » يُتِمُّ كلامَهُ ، حتَّى قَدِمَ أحدُ أصْدِقاء « أنطنْيو » يقول : « إنَّ « بَلَرْيُو » لا يَسْتَطيعُ الْحُضورَ اليَوْمَ ، وَقَدْ أَوْفَدَ رَسولًا — مِنْ قِبَلِهِ — لِيَنُوبَ عنهُ فى الرَّأْى . »

فَأَذِنَ « الدُّوقُ » للرَّسولِ بالدُّخولِ . وكانَ « باسَنْيو » دائبًا على تَشْجيعِ صَديقهِ « أنطُنيو » وهُوَ يُقَرِّرُ لهُ أَنَّهُ لَنْ يُبيحَ لِغَريمه

« شَيْلوكَ » أنْ يقطَعَ رِطْلًا مِنْ لحْمِهِ . وكانَ يقُولُ له :

« كُنْ عَلى ثِقَةٍ — يا صَديق — مِنْ أنّى لَنْ أَدَعَكَ فَرِيسَةً لهٰذا الرَّجُلِ العنيدِ . وَسأُعْطِيهِ لَحْمِى ، ودمِى ، وَعِظامِى ، فِدَاءً لكَ ! وَسأُرِيقُ (سأصُبُّ) آخِرَ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِى قَبْلَ أَن يُرِيقَ قَطرَةً واحِدَةً مِنْ دَمِكَ الزَّكِيِّ (الطَّاهِرِ) ! »

وكانَ « شَيْلوكُ » — حِينَئِذٍ — يَشْحَذُ سِكِّينَهُ (يُحِدُّها) عَلى جِلْدِ حِذائِه ، وَيقُول فى لَهْجَةِ السَّاخِرِ الْمُتَهَكِّمِ :

« إِنَّما أَشْحَذُ مُدْيَتِى هٰذهِ لِتَكُونَ أَقْدَرَ عَلى قَطْعِ نَصِيبِى فِى لَحْمِ « أَنْطُنْيو » مِنْ غَيْرِ أَنْ تُؤْلِمَهُ أَوْ تُعَذِّبَهُ ! »

٥ — بين الْمُحامِى و « شَيْلوكَ »

وَلَمَّا دَخلَ الْمُحامى ، أَخْبَرَ « الدُّوق » أنَّ « بَلَرْيُو » قدْ أَوْفَدَهُ نائبًا عنهُ فى هٰذهِ الْقَضِيَّةِ الْغَرِيبَةِ ، واسْتَأْذَنَ الْمُحامِى الفتَى رَئِيسَ الْقُضاةِ فى أَن يَبْدَأَ الدِّفاعَ . فَأَذِنَ لهُ .

وكانَ هٰذا الْمُحامِى فَتًى نَحِيفَ الْجِسْمِ ، عَذْبَ الْحَديثِ ، رَشِيقَ

الْحَرَكَةِ ، دَقِيقَ الْمُلاحَظَةِ ، حاضِرَ الْبَدِيهَةِ (سَرِيعَ الْجوابِ) . وَقَدْ بَدَأَ دِفاعَهُ بِقَوْلِهِ مُخاطِبًا « شَيْلوكَ » :

« إِنَّ قَضِيَّتَكَ غايَةٌ فى الْغَرابَةِ ، وَهِىَ قَضِيَّةٌ لا مَثِيلَ لَها فى التَّارِيخِ ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ القانونُ — إذا أَصْرَرْتَ عَلى طَلَبِكَ — أَن يَقِفَ دُونَ ما تُرِيدُ . فإِذا أَبَيْتَ إِلّا إِنْفاذَ رَغْبَتِك ، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْعدالةُ أَن تَعْتَرِضَكَ . وَلٰكِنَّ الإِحْسانَ فَوْقَ الْعَدْلِ ، والرَّحْمَةَ فَوقَ الْقانونِ . فَهَلْ أَنْتَ مُتَجاوِزٌ عَن حَقِّكَ فى سَبِيلِ الإِنْسَانِيَّةِ وَالرَّحْمةِ ؟ »

فقالَ « شَيلوكُ » : « لا سَبيلَ إلى هٰذا ! »

فقالَ الْمُحامى : « إِنَّ الرَّحْمَةَ تُضَاعِفُ السَّعادَةَ ، ولَها فَضْلٌ مُزْدَوِجٌ ، فَهِيَ تُسْعِدُ الرَّاحِمَ وَالْمَرْحُومَ جَمِيعًا . وَقدْ أَوْصَتْنا الْأَخْلاقُ وَالشَّرائِعُ أَنْ نَأْخُذَ بِأَسْبابِ الرَّحْمَةِ والْغُفْرانِ وَالصَّفْحِ ، لِتُصْبِحَ الْحياةُ فِرْدَوْسًا (جَنَّةً) مِنْ فَرادِيسِ السَّعادةِ . »

فَقالَ « شَيْلوكُ » ، فِى لَهْجَةِ الْغاضِبِ الْمُحْنَقِ :

« دَعْنى مِنْ هٰذِهِ الثَّرْثَرَةِ ، فَلَنْ أُصِيخَ (لَنْ أَسْتَمِعَ) إِلَيْها ، مَهْما تَتَفَنَّنْ فى بَلاغَتِكَ ، وَلَنْ أَتَجاوَزَ عَنْ حَقِّى فِى رِطْلٍ مِنْ لَحْمِ

هذا الْمَدِينِ ! » فَقالَ « باسنْيُو » لِلْمحامِى :

« أَلا تَسْتَطيعُ يا سَيِّدى أَنْ تَرفُضَ هٰذا الْمَطْلَبَ ؟ »

فَقالَ الْمُحامِى : « كَلّا يا سَيِّدى ! فإِنِّى شَديدُ الأَسَفِ ، لِأَنَّ الْحَقَّ فِيما يقُولُ « شَيلوكُ » . ولَوْ أَخَذَ الْقاضِى بِرأْيِكَ لَعُطِّلَتْ أَحْكامُ الْقانُونِ ، وَضَعُفَتْ ثِقةُ النَّاسِ بِعَدْلِ الْقَضاء . »

فَقالَ « شَيلوكُ » وَقد غَمَرَهُ السُّرُورُ والْفَرَحُ :

« يالَكَ مِنْ مُحامٍ كَيِّسٍ (لَبِقٍ ذَكِيٍّ) نَزِيهٍ ! »

فَقالَ لهُ : « أَشْكُرُ لكَ هٰذا الثَّناء ، ولٰكِنِّى أُلِحُّ عليْكَ فى الرَّجاء أَنْ تَقْبَلَ ثلاثةَ أَمْثالِ ما أَخَذَهُ « أنطُنْيو » مِنَ الْمالِ . »

فَقالَ « شَيْلوكُ » : « كُلُّ هٰذا عَبَثٌ لا طائِلَ تَحْتَهُ (لَعِبٌ لا فائِدةَ منهُ) ! »

فَقالَ الْمُحامِى : « لَقَدِ انْقَضَى الْمَوْعدُ الّذِى عَيَّنْتَهُ لِرَدِّ دَيْنِكَ إِلَيْكَ . ولكَ الْحَقُّ فى أَنْ تُصِرَّ عَلَى طَلَبِكَ . ولٰكِنْ ؛ أَلا سَبيلَ إِلى عُدُولِكَ عَنْ هٰذا الْمَطْلَبِ الْقاسِى ؟ »

فَقالَ « شَيْلوكُ » : « لَنْ أُفَرِّطَ فى حَقِّى ، ولَوِ انْطَبَقَتِ السَّماءُ على الْأَرْضِ ! »

فَخَيَّمَ الْحُزْنُ عَلَى الْحاضِرِينَ ، وَاسْتَوْلَى علَيْهِمُ الذُّعْرُ والْقَلَقُ ، وعَجِبُوا مِنْ غِلْظَةِ « شَيْلُوكَ » وَإِصْرارِه على انْتِقامِهِ الْوَحْشِيِّ .

٦ — بَرَاعَةُ الْمُحامى

وسَئِمَ « أَنْطُنْيُو » هٰذا اللَّجاجَ (الإِلْحاحَ والْمُداوَرَةَ فى الْكلامِ) ، فَصاحَ يَطْلُبُ مِنَ « الدُّوقِ » أن يُعَجِّلَ بِحُكْمِهِ .

فَقالَ لهُ الْمُحامى : « كُنْ مُسْتَعِدًّا ، فَإِنَّ مُدْيَةَ « شَيْلوكَ » (سِكِّينَتَهُ) تُوشِكُ أَنْ تَقْطَعَ رِطْلًا مِنْ لَحْمِكَ ! »



فَصاحَ « شَيْلوكُ » : « مَرْحَى لكَ أَيُّها الْعادِلُ النَّزيهُ ! »

فقَالَ لهُ الْمُحامى : « هَلْ أَحْضَرْتَ ميزانَكَ مَعَكَ ، لِتَزِنَ بهِ ما تَقْطَعُهُ مِنَ لَحْمِ « أنطُنْيُو » ؟ »

فقَالَ لهُ « شَيْلوكُ » وقَدْ طَفَحَ وجْهُهُ بِشْرًا : « هاكَ الْميزانَ ! »

وأَخْرَجَ ميزانَهُ مِنْ جَيْبِهِ ، ويَداهُ تَرْتَجِفانِ مِنَ الْفَرَحِ بِما أَحْرَزَهُ مِنْ فَوْزٍ وانْتِصارٍ .

وسادَ الصَّمْتُ ، وانْعَقَدَتِ الْأَلْسُنُ ، وأُرْهِفَتِ الْأَسْماعُ ، وكَشَفَ « أنطُنْيو » عَنْ صَدْرِه ، وقالَ لِصَديقهِ « باسَنْيُو » مُتَجَلِّدًا :

« وَداعًا أَيُّها الْأَخُ الْكَريمُ ، وحَذارِ أَنْ تَجْزَعَ على فَقْدِي ، فَإِنِّى أجودُ بِنَفْسِي طائِعًا مُرْتاحًا . وما أَسْعَدَنِى حينَ أَبْذُلُ دَمِى ورُوحِى فِداءً لِشَرَفِكَ ! »

ثمَّ قالَ الْمُحامى : « خُذْ رِطْلًا مِنْ لَحْمِ « أنطُنْيو » . فَإِنَّ الْقانُونَ مؤَيِّدُكَ ، والْقضاءَ حَليفُكَ (نصيرُكَ) ! »

فَقالَ « شَيْلوكُ » : « ما أَعْدَلَ حُكْمَكَ ، وأَرْجَحَ عَقْلَكَ ! »

ثمَّ سَلَّ « شَيْلوكُ » مُدْيَتَهُ ، ورَفَعَ يَدَهُ ، وقَدْ أَلْجَمَ الذُّعْرُ أَلْسِنَةَ الْحاضِرِينَ . فقَالَ لهُ الْمُحامى : « مَكانَكَ يا « شَيْلوكُ » ! »

فعجِبَ « شَيْلوكُ » وسأَلَهُ : « أَلَمْ تَقْضِ لِي بِرِطْلٍ مِنْ لَحْمِ غَرِيمي؟ »
فَقَال لهُ الْمُحامي :

« إِنَّ القَضاءَ يُبيحُ لكَ رِطْلًا واحِدًا مِنْ لَحْمِ « أَنْطُنْيُو » ولٰكِنَّهُ لا يبيحُ لكَ أَنْ تَسْفِكَ (تُرِيقَ وَتُسِيلَ) نُقْطَةً واحِدَةً مِنْ دَمِهِ . فاقْطَعْ رِطْلًا واحِدًا مِنْ غَيْرِ زِيادَةٍ وَلا نُقْصانٍ . وحَذارِ أَنْ تُرِيقَ مِنْ دَمِهِ قَطْرَةً ، وإِلّا صادَرَ الْقانُونُ كلَّ ما تَمْلِكُ مِنْ مالٍ وعَقارٍ (أَمْلاكٍ) ! »

فارْتَبَكَ « شَيْلوكُ » واشْتَدَّ اضْطِرابُه ولَمْ يَدْرِ : كَيْفَ يَقُولُ ؟ وَلا كَيْفَ يَصْنَعُ ؟ فَقالَ لهُ الْمُحامي :

« هَلُمَّ (تَعالَ) فاقْطَعْ لَحْمَهُ ، وَلا تَسْفِكْ نُقْطَةً مِنْ دَمِهِ ! »

فَأَدْرَكَ « شَيْلوكُ » اسْتِحالةَ ما يَطْلُبُهُ الْمُحامي مِنْهُ . فَقالَ لهُ :

« لَقَدْ عَدَلْتُ عَن رَأْيي ، ورَضِيتُ بِما عَرَضَهُ « باسَنْيُو » عَلَيَّ مِنَ الْمالِ . فَهاتُوا سِتَّةَ الآلافِ مِنَ الدَّنانِيرِ . »

فَقالَ الْمُحامِي : « كَلَّا ، لا أُبيحُ لكَ ذٰلكَ . وَما دُمْتَ قَدْ رَفَضْتَ ما عَرَضُوهُ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، فَلا حَقَّ لكَ فيهِ الآنَ ، بَعْدَ أَنْ أَضَعْتَ الْفُرْصَةَ . »

فقالَ « الدُّوقُ » : « لقدْ جُرْتَ (ترَكْتَ طَريقَ الْحَقِّ) فى مَطْلَبِكَ يا « شَيْلوكُ » ، وتَجاوَزْتَ الْقصْدَ فى إساءَتكَ . وقدْ قضَيْنا بمُصادَرةِ مالِكَ . »

فَخَرَجَ « شَيْلوكُ » يَجُرُّ ذَيْلَ الْخَيْبَةِ ، وَيَعَضُّ بَنانَ النَّدَمِ (يَعَضُّ رُءُوسَ أصابِعهِ مُتأَسِّفًا) . وأُعْجِبَ الْحاضِرُونَ بِبَراعَةِ الْمُحامِى ، وعدالةِ الْقضاء .

٧ – خاتَمُ الْعُرْسِ

فَأَقْبَلَ « أَنْطُنْيو » عَلَى مُحاميهِ يُصافِحُهُ ويُحَيِّيهِ ، وَيَشْكُرُ لَهُ كِياسَتَهُ (حُسْنَ تَصَرُّفِهِ) ولَباقَتَهُ وذَكاءَهُ ، واشْتركَ مَعهُ « باسَنْيو » فى تَحِيَّةِ الْمُحامِى والثَّناء عَليهِ ، وسَأَلهُ أَنْ يَقْبَلَ مِنهُ ما يَشاءُ مِنَ الْأَجْرِ .

فَقالَ لَهُ الْمُحامى : « لَنْ أَقْبَلَ – عَلَى ما صَنَعتُ – أَجْرًا ، وحَسْبِى مِنكَ هٰذا الخاتَمُ الّذِى فِى إصْبَعِكَ ، لِيَكُونَ أَحْسَنَ ذِكْرَى لِهٰذا التَّعارُفِ الْوَثيقِ (الْمتينِ) . »

فارْتَبكَ « باسَنْيو » واعْتَذَرَ لِعَجْزِهِ عَنِ التَّفْرِيطِ فِى ذٰلكَ الْخاتَمِ الّذِى أَوْصَتْهُ « پُرْشا » أَنْ يَحْرِصَ عَليهِ .

فَأَصَرَّ الْمُحامى عَلَى طَلَب الْخاتَمِ ، وَرَفَضَ أَنْ يَقْبَلَ أَى هدِيةٍ أخْرَى . فاشتَدَّ ارْتباكُ « باسَنْيو » وَشَعَرَ بِحَرَجِ الْمَوقِفِ .

فَقَالَ لهُ الْمُحامِي : « يُخَيَّلُ إِلَىَّ أَنَّكَ — يا سَيِّدِى — سَخِىٌّ بالْوُعُودِ ، شَحِيحٌ (بَخيلٌ) بإِنْجَازِها ! »

فاسْوَدَّت الدُّنْيا فِى وَجْهِ « باسَنْيُو » وَرأى أَنَّهُ سَيَكُونُ آيَةً فِى الْعُقُوقِ (مَثَلًا يَسْتَدِلُّ بِهِ النَّاسُ عَلى إِنْكارِ الْجَمِيلِ) ، إِذا رَفَضَ إِعْطاءَهُ هٰذا الْخاتَمَ ، بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَ صَدِيقَهُ « أَنْطُنْيُو » الَّذِى عرَّضَ نَفْسَهُ لِلهَلاكِ فِى سَبِيلِهِ . »

فَنَزَعَ الْخاتَمَ مِنْ إِصْبَعِهِ ، وأَعْطاهُ إِيَّاهُ ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ الصَّفْحَ عَمّا رآهُ مِنْ تَرَدُّدِهِ وَارْتباكِهِ . فَشَكَرَ لَهُ الْمحامِى هٰذِهِ الْهَدِيَّةَ الثَّمينَةَ ، واسْتَأْذَنَهما فى الِانْصِرافِ . فوَدَّعاه شاكِرَيْنِ .

ولَمَّا جاءَ الْغَدُ ، سافَرَ « باسَنْيُو » وصدِيقُهُ « أَنْطُنْيو » إِلَى قَصْرِ « پُرْشا » ، وقَدْ تَوَثَّقَتْ بَيْنَهما أَواصِرُ الْوَلاءِ (عَلاقاتُهُ) ، بَعْدَ أَنْ جَمَعَتْ بَيْنَهما الشَّدائدُ والآلامُ ، وَوَحَّدَتْ بَيْنَ قَلْبَيْهِما ، حَتَّى أَصْبَحا مِثالًا لِلوَفاء . ورَمْزًا لِلْمَحَبَّةِ والإِخاء .

خاتمة القصة

١ — فِي قَصْرِ « بُرْشا »

وَمَا إِن وَصَلَ « باسَنْيو » وَ« أَنطنْيُو » إِلَى قَصْرِ « بُرْشا » حتَّى احتَفَتْ (أَظْهرتِ السُّرُورَ) بِمَقْدَمِهِما ، وهَنَّأتْ « أنطُنْيُو » عَلى نَجاتِهِ مِنَ الْفَخِّ ، وخَلاصِهِ مِنَ الشَّرَكِ الَّذِى أَعَدَّهُ لَهُ غَرِيمُهُ (دائِنُهُ) « شَيْلُوكُ » الْخَبِيثُ .

وكانتِ اللَّيْلَةُ مُقْمِرَةً ، والْبَدْرُ يُرْسِلُ أَشِعَّتَه ساطِعَةً عَلى أَزْهارِ الْحَدِيقَةِ . فَيُخَيِّلُ إِلَيْكَ أَنَّها مُشْمِسَةٌ ، وتَرَى لِجَمالِها رَوْعَةً وسِحْرًا .

وَقَدِ ابْتَدَرَتْ « بُرْشا » زَوْجَها « باسَنْيُو » قائِلَةً :

« لَقَدْ ذاعَتْ أَنْباءُ الْقِصَّةِ حَتَّى وصَلَتْ إِلَيْنا . ولَا تَسَلْ عَنْ فَرَحِى بِخَلاصِ « أنطُنْيُو » مِنْ بَراثِنِ الرَّدَى (أَصابِعِ الْمَوْتِ) . فَهَلْ تَتَفَضَّلُ عَلَيّ بِتفاصِيلِ أَنْباءِ هٰذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ ؟ »

فَظَلَّ يَقُصُّ عَلَيْها « أَنطنْيُو » تَفاصِيلَ الْقَضِيَّةِ -- وهُمْ سائِرُونَ بيْنَ أَزْهارِ الْحَدِيقَةِ — ثُمَّ حدَّثَها « باسَنْيُو » وَ« أَنطُنْيُو » عَنْ

إعْجابِهما الَّذِى لا يُوصَفُ، بِبَرَاعَةِ الْمُحامِى الْفَتَى وذَكائِه ، وكَيْفَ أَنقَذَ « أنطُنْيُو » مِنَ الْمَأْزِقِ ، بَعْدَ أنْ أيقَنَ النّاسُ بِهلاكِهِ .

٣ — غضبُ « بُرْشا »

ثمَّ قالَ « باسَنيو » لِصاحِبَتِهِ « بُرْشا » :

« وَلَمْ يَشَأْ ذٰلِكِ الْمُحامِي النّابِغةُ أَنْ يَقْبَلَ مُكافَأَةً عَلى دِفاعِهِ غيْرَ خاتَمِ الْعُرْسِ . »

فصاحَتْ « بُرْشا » مَذْعورَةً (خائِفةً) :

« وَما أَشُكُّ فى أَنَّكَ ضَنِنْتَ (بَخِلْتَ) بِهِ عَليهِ ، كما عاهَدْتَنى مِنْ قَبْلُ ! »

فَقالَ « باسنْيو » : « كَلاَّ يا سيِّدتِى، لَمْ أَضَنَّ بِهِ عَليهِ . فقَدْ كُنْتُ أُوثِرُ (أُفَضِّلُ) أَنْ أَقطَعَ إصْبَعِى ، قبْلَ أَن أَضَنَّ (أَبْخَلَ) بذٰلِكِ الْخاتَمِ عَلى مَنْ أَنْقَذَ حَياةَ صَدِيقِي مِنْ بَرَاثِنِ الْمَنِيَّةِ (مَخالِب الْمَوْتِ) ، وَلَوْ طَلَبَ نَفْسِى لَبذَلْتُها فِداءً لَهُ . »

فَتَظاهرَتْ « بُرْشا » بالْحُزْنِ ، وقالَتْ لِصاحِبِها « باسنْيو » :

« لَقَدْ نَكَثْتَ بِعَهْدِكَ (نَقَضْتَهُ ولم تَفِ بهِ) ، فلا سَبيلَ إلى الزَّواجِ بِكَ ! »

فقالَ لها « أَنطُنْيو » ضارِعًا (مُتَوَسِّلًا) :

« رُحْماكِ أَيَّتُها النّبيلةُ الكَريمَةُ . أَلا تُساوِي حَياتِي كُلُّها خاتَمًا ، بالِغًا ما بلَغَ مِنَ النّفاسَةِ والْخَطَرِ ؟ »

وظَلّ « أَنْطُنْيو » و« باسَنْيو » يَعْتَذِرانِ لها وَيَسْتَعْطِفانِ قَلْبَها حتّى لانَ . فقالَتْ لِصاحِبِها « باسَنْيو » :

« أَراكَ عَلَى حَقّ فيما تَقولُ . فَخُذْ خاتَمًا آخَرَ ، وَحَذارِ أَنْ تُفَرِّطَ فيهِ كما فَرّطْتَ فِى الْخاتَمِ الأَوّلِ . »

٣ — محامى « أَنْطنْيو »

وما رَأَى « باسنْيو » الْخاتَمَ حتَّى تَمَلّكَهُ الْعَجَبُ ، واشْتَدَّتْ بِهِ الْحَيْرَةُ ، إِذْ أَيقَنَ أَنّهُ الخاتَمُ الَّذِى أَهْداهُ إِلى مُحامِي « أَنْطُنيو » . ولَم يَدْرِ : كَيْفَ يُعَلّلُ هٰذا الطِّلَّسْمَ الْغامِضَ (اللُّغْزَ الْخَفِيَّ) ؟

فقالَ لَها مُضْطَرِبًا : « لَسْتُ أَفْهَمُ شَيْئًا ، ولا أَدْرِى مَعْنًى لِهٰذا الْمُزاحِ ! »

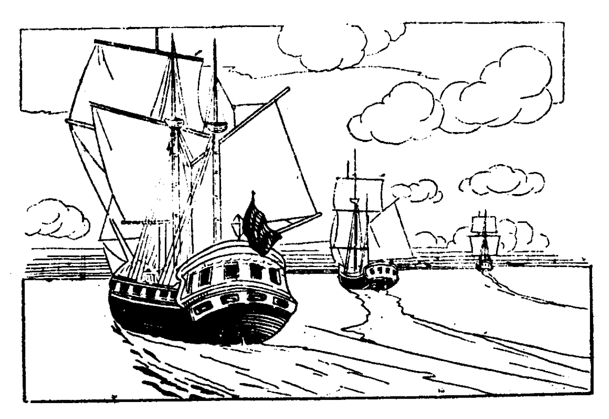
٤ — مفاجَأةٌ سارَّةٌ

فابْتَسَمَتْ « پُرْشا » قائِلَةً : « لَيْسَ فى الأَمْرِ سِرٌّ غامِضٌ . فَإِنَّ الْمُحامِىَ الْفَتَى الَّذِى كانَ لَهُ شَرَفُ الدِّفاعِ عَنْ « أَنْطُنْيو » هُوَ أَنا ! »

فاشْتَدَّ عَجَبُ « باسَانْيو » و« أَنْطُنْيو » . وسأَلاها مَدْهُوشَيْنِ :

« وكَيْفَ مَثَّلْتِ هٰذا الدَّوْرَ الْعَجِيبَ ؟ »

فقالَتْ لَهُما : « لَقَدْ سافَرْتُ إلى « الْبُنْدُقِيَّةِ » ، وشَغَلْتُ نَفْسِى



بِدَرْسِ الْقَضِيَّة دَرْسًا عَمِيقًا ، حَتَّى وصَلْتُ إلى الْحَلِّ الَّذِى قَلَبَ

الْقَضِيَّةَ على رَأْسِ الطَّاغِيَةِ الْماكِرِ .

واخْتَرْتُ زِيَّ الْمُحامِينَ (ثَوْبَهُمْ وشِعارَهُمْ) ، حَتَّى لا يَتَرَدَّدَ الْقَضاءُ فِي قَبُولِ دِفاعِي عَنْ « أَنطُنْيُو » . وقَدْ كَلَّلَ اللهُ سَعْيِي بالنَّجاحِ . »

ثُمَّ قالَتْ لِصاحِبِها « أَنطُنْيُو » :

« لَقَدْ أَتَمَّ اللهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، فَنَجَّى مِنَ الْغَرَقِ ثَلاثًا مِنْ سُفُنِكَ . وَقَدْ رَأَيْتُها سائِرَةً فى طَرِيقِها إلى « الْبُنْدُقِيَّةِ » فى أَثْناءِ عَوْدَتِي إلى بَيْتِي . »

وَلا تَسَلْ عَنْ فَرَحِ « أَنْطُنْيُو » حِينَ عَلِمَ أَنَّ ثَرْوَتَهُ لَمْ تُفْقَدْ كُلُّها .

أَمَّا « باسَنْيُو » فَقَدْ حَمِدَ اللهَ على ما اخْتارَهُ لَهُ . وأَيْقَنَ أَنَّ « پُرْشا » كَنْزٌ يَرْجَحُ — فى مِيزانِ الإنصافِ — كُنُوزَ الدُّنيا كُلَّها . وأَنَّها جَدِيرَةٌ أَن تُفَدَّى بالأَرواحِ والْمُهَجِ . وقَلَّ لَها ذٰلِكَ الْفِداءُ !

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٤٣٣٣
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3324 - 2	ISBN

١ / ٩١ / ١١٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)